نادر كساسبه

أعطني وطناً
أعطيكَ قلباً



دار جرير
للنشر والتوزيع

أعطني وطناً أُعطيك قلباً

(رواية)

أعطني وطناً أُعطيك قلباً

نادر كساسبه

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/4/1557)

رقم التصنيف : 813.9

الواصفات: / القصص العربية//العصر الحديث //

الطبعة الأولى 1434هـ - 2014 م

عمّان- شارع الملك حسين- مقابل مجمع الفحيص التجاري
هاتف : 4651650 - فاكس : 4643105 6 962+
ص . ب . : 367 عمّان 11118 الأردن
E-mail: dar_jareer@hotmail.com



ردمك ISBN 978- 9957 - 38 - 301 - 5

أعطني وطناً أعطيكَ قلباً

نادر كساسبه



كنانة العمانية كانت تبحث عن رجل تغنيه، رجل يكون موسيقاها، يحدثها عن كل ماضيه المظلوم وتراه واقفاً مثل نسر جريح يأبى أن يهادن أو يبيع، عاش الخيانة ولم يقترفها، رجلٌ لا يُخيِّب ظنها لو استيقظت في العتمة، ورأت أخاها راحلاً وأباها ميتاً وعمها مسجونا وأمها متزوجة من رجلٍ قدم من بلاد لا تعرفها.

رجل مؤجل جاءها من العدم، من الحلم بأن للعمر بقية لم تأتِ بعد، رجل ليس له إلا قصة واحدة هي قصة الخذلان، تحمله الأرصفة لها فتتلقفه بصدرها، تجده إذا ما شعرت بالخوف وهي تقطع الطرقات إلى البيت ليلاً، رجل لا يملك حنجرةً تحكي الأكاذيب والقصص المزيفة في الليالي الباردة، يأتيها من أرضِ معركةٍ هرب التجار منها وما بقي إلا هو وصحبه واقفين فيها.

رجل يوقف نزيف قلبها ولا تهمد نيرانه إلا إذا وقفت قبالته تغامزه، تعطيه الفرصة وهي موقنة بأنه يريدها ويحتاجها من غير أن يدري، يدخل كهفها المظلم وينير لها عالمها بكبسة زر، يمارس احتجاجه على تصرفٍ أزعجه منها بالصمت، ويرفض اقتحام فراشها ليومين وثلاثة إنْ هي أغضبته.

رجل لا يسألها هل دَقَّ قلبكِ لرجل من قبلي، فتذبح قلبها عند قدميه قرباناً له وتذوب تحت شفتيه، فيصبح ربها من غير أن يتأله، يقول لها: لك الآلهة نذرتني لأكون ملكك.

رجل ينسى ماضيها ويقول لها: أنتِ خُلِقت الساعة، ولا يحاسبها على أحدٍ توسمت به خيراً في ليلة برد وضياع فخذلها، وحَمَلَت حقائبها ومضت عاكفة تنتظر رجلاً آخر يقتحم حصونها من غير هواده.

قالت مرة لذلك الأحمق الذي كانت تتوهم بأنه رجلها: لم تعد تروقني يا ابن الذوات، صرت أبحث بعدك عن رجل في صفوف الغرباء وما أقل الغرباء في مدينتنا.

غرباء القلب، غرباء الموقف والكلمة، غرباء الهيئة بوجوه مُلتَبَسة، وستقول لها أم الشهيد في لحظة حزن على ابنها: ابن الغريب يظل غريباً يا ابنة الحروب، يحتاج لثلاثة قبور وأكثر حتى يصبح من أهل البيت، والبيت تهاوى من قبل شهادة ميلاده وسيُهدم يوماً على أدمغة أهله.

لكنها الغربة إذ يفهمها الناس بطرق مختلفة، ذاك يراه غريب الميلاد وتلك تراه غريب الحياة، يفهم الدنيا على نحو مغاير مما يفهمها الناس، يتعاطى مع الدين وكأنه نبي جديد، يتحدث عن الوطن من دون حاجة منه لوظيفة أو منصب، يلاطف معشوقته من غير أن ينزوي بها بعد الغروب خلسة كثعلب يريد أن يسرق دجاجة، يأخذ القُبلَة منها من غير لؤم، يؤجل حاجات جسده لميعادٍ هو يقسم أن لا يخلفه.

تراه أسطورتها حينما يُعِدِّلُ لها أخطاء البشرية، فيخبرها

أن الأهرامات ما كانت يوماً مقابر للفراعنة ولا لأجل هذه الغاية بُنيت، وإنما استحدثها رمسيس الثاني حينما أراد أن يقابل الله حيث قال: "إبني لي يا هامان صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السماء ؛ فأطلع على إله موسى"، ثم حذا الفراعنة حذوه في مثل هذا النوع من البناء.

تذوب كقطعة الجبن من نبرة صوته من غير أن تفهم عليه حينما يقول لها إن علم الأدب المقارن علمٌ وهميٌ، أكذوبة شيّدها الفرنسيون ليكون جزءاً من دراساتهم الكولونياليه الإستعمارية التي تذهب إلى دراسة آثار آدابهم وثقافاتهم على الأمم الأخرى، ثم كيف أصبح هذا العلم كعجوز عانس حينما عدَّلَ الأمريكيون عليه من أجل تعبيد الطريق أمامهم في الوصول إلى العولمة الكونية وأمركة العالم بعد تحطيم الروابط القومية لشعوب وأمم العالم.

يسحرها بمنطقه وهو يهاجم مروجي هذا النوع من الأدب؛ فينال من الأسس التي قام عليها فيسحق مشروعيته في الحياة والوجود وينادي بأن يكون حقله إن كان من الضروري أن يكون له حقل، بين الشعوب التي تحمل تركيبة دماغية بيولوجية مختلفة عن الأخرى، كأن يكون حقلها ما بين الساميين وأتباع حام ويافثٌ كلٌ على حدّه.

تكتب له قصيدة نثرية تتغزل فيه كما المراهقين وتسأله أن

يقارن بين قصيدتها وقصائد الشاعرة الأمريكية "سيلفيا بلاث"، فيرفض ويقول لها سأقارنك بالأندلسية "ولادة" تارةً وبالخنساء تارة أخرى، فالمقارنة في اللغة الواحدة أولى وتكون أكثر نضجاً إن اختلفت في عصورها.

تحاول إيقاف تدفقه لتعيد الحديث بينهما عن الحب والأحلام، فسيستمر مهاجماً أهمية "تاريخ الأدب" سائلاً إياها: ما الذي يجمع بين درويش والمتنبي. أو بين السياب وأمرئ القيس، إلا أنهما نطقا بلغة واحدة وعاشا في ذات البلد تقريباً ولكن حياتهما واهتماماتهما كانت مختلفة.

رجل يؤمن مثلها أن الإنسان له أيام لا تُنسى مهما اعتلاها من غبار، لا تُنسى وإن تظاهر بأنه قد تجاوزها، تضرب هكذا بعمق في الذاكرة فتصبح كما الوتد الذي يحمل الخيمة كلّها، أترى هل كانت ذاكرتنا وما احتوته من مواقف هشة في مواجهة الأحداث كما الخيمة إذ تصبح أضعف من ضعيفة في مواجهة الريح والأعاصير.

تراه مثلها إذ يرى أن لكل الأيام شكلها وتصميمها إلا يوم الحادي والعشرين من آذار عام ثمانية وستين فله رائحته، كل الأيام كانت تصلح للخيانة والنسيان والتلاعب إلا ذاك اليوم، فما كان يقبل بأنصاف المواقف ولا بالمواقف الرمادية.

كل الأيام قد تعود ويزهر فيها الياسمين إلا ذاك اليوم لن

تلده الأوطان مرة أخرى، فالأيام الخالدة كما المرأة الأسطورة لا تتكرر أبدا، كل الأيام بُنيت لنا على أذواق غيرنا أما ذاك اليوم فقد بنيناه بحجارة من قلوبنا.

يومٌ تواجهت فيه فساتين النوم الملوثة مع الأزياء الشعبية لأمهاتنا، فيا ويلنا كيف لم نطلب الدفء من تلكم الأثواب الباهتة على أجساد أمهاتنا الملطخة بعرق الأمومة ويا ويلنا إذ لم نرّ العنفوان المخفي تحت جلودهنّ.

ذاك يوم من أيام السماء إذ تنافست فيه اللغات وتواجهت بكل شراستها لتفرض هديرها وصوتها على المكان، وهيهات للغة إلا لغة أمهاتنا أن تعرف كيف تكبر الله ؟

يومَ علّمونا في مدارسنا إذ كنّا صغاراً أن التاريخ لا يُكتَب إلا بالدم، لم يكونوا محقين وإن صدقوا فيه بعض الشيء، فالتاريخ يُكتَب بالعدل وبالحب وبالقيم، أشفعت كل دماء هولاكو وجنكيز خان ليكونوا ضيوفاً محترمين على التاريخ ؟

أن تخفي الحقيقة فهذا لا يعني أنهم لن يكتشفوها يوماً، ولن يجدوها مخبأة في إحدى زوايا ماضيك، ويكشفوها للملأ فتخجل منها ومنك.

نتأفف من فضائحنا وخياناتنا ليس لأننا نخاف الذين أمامنا، بل لأننا نخجل من أنفسنا أن تنهار صورتنا أمامهم، فنحن لا نعرف أن نعيش إلا بأكثر من صورة وأكثر من رداء وأكثر من موقف.

المارون من هنا سيعرفون بأنا ما كنَّا مجرد عُشاقٍ يقضون لياليهم الطويلة بالحب وبالحديث عن الأحلام التي لن تتحقق، سيتأففون من فكرة أنا نبلاء، غير أنَّهم سيعرفون أنَّا كنَّا على حقٍ منذ التقينا حتى توادعنا، منذ ضحكت شفاهنا حتى توجعت قلوبنا.

وسيعرفون بأنَّ الذنب ماكان ذنبنا، يوم يكتشفون أنَّ الكمبارس قد صادروا أدوار البطولة وأخذوا النصوص الجميلة ليصنعوا منها أمجادهم المزيفة بعد أن استولوا على المسرح كاملا.

برغم الإبطاء نمضي لحو النهايات المؤجلة، نتقن تأجيلها لأننا نتقن تطويل فترة الاحتضار، فاجعتنا بالاحتضار أكثر من الموت ذاته، الاحتضار يُبقي الأمل معلقاً عند أصابع طبيب غير محترف تخرج من بلاد عُرِفت بالرشوة، يأتي فجأة ويصنع لنا المعجزات، أما مع الموت فقد ذهب المسيح منذ قرون طويلة ولن يرجع.

نحن لم نخذل أحداً بمواقفنا ولكننا خذلنا أنفسنا، وقليلاً ما خذلنا من أحببناهم، مأساتنا أنَّا كنَّا نطالبهم بالكثير من دون أن نعلم، نرهقهم بوعدٍ أطلقوه وهم في غفلةٍ من وعيهم، ونحن نعلم أنهم لن يحققوه، لقد تقاطعت طرقنا معهم منذ البداية صدفةً، فاختاروا الطريق الآخر والدرب الآخر والهمَّ الآخر.

لا تطلبي من عاشقٍ غريب أن يكون صادق الوعد، فلئن

كان هذا العاشق الغريب ينوي الصدق، فهو وبذات الوقت لا يقدر عليه، أَلَمُهُ بغربته أقوى بكثير من ألمه بوداعك، ذاك أن تلك الغربة كانت الأساس، وأنت من أتى لاحقاً فقدته إلى طريق ما كان يوماً طريقه، حاولتِ تغيير مسار قدره لكنه القدر لا يخطئ مصيره.

إياك أن تتهمي عاشقك الغريب بالكذب حتى وإن خذلك واعتقدت أنه ضلل بك، فالغرباء لا يعرفون الكذب، لا يعرفون الوفاء بوعودهم وعهودهم أيضاً، جيناتهم جُبلت على الخوف، الخوف من كل شيء، من النور والظلام، من الوحدة والأنيس، من البقاء والرحيل، كُتِب عليهم الخوف من كل شيء حتى منك أنت، أنت التي كُتِب عليك ملاقاتهم من قبل أنْ تولدي ويولدون، فلا تلوميهم ولومي قدرك أنْ رماك في ملعبهم.

عاشقك الغريب سيظل أحلى برحيله، ستكون ذاكرتُك عنه في كهولتك أحلى وأنت تحدثين عنه جارتك الستينية التي فاتها قطار الزواج، وأصبحت صديقتك الوحيدة بعد موت زوجك الذي اخترته بطريقة تقليديه.

جارتك الستينية التي ستحدثينها عن "راحيل"، وكيف تجبرت على المستضعفين الذين ما أرادوا سوى الحياة وحسب، الحياة وإن كانت ملونة بلون الذل والهوان، ستحدثينها عن

راحيل إذ تمضي مختالة عند أشجار النهر بفستان نومها الفاضح تعلن حربها على الضفة الشرقية، تقود جيشها ومجنديها بثقة استنبطتها من وجوهٍ باهتةٍ انهزمت أمامها أيام النكبة والنكسة، ثقة عمياء قادتها للإيقان بنصرٍ لن يكون لها.

خطبت في جنودها الذين لا يشبهونها تقول لهم: الليلة موعدنا مع قتل الحب والمحبين، الليلة لن يرجع عاشق لمعشوقته ولا ابن لأمه، وسنقتل الطفل المتسول في شوارع مدينة صويلح.

الليلة سنعبر كما عبر بنا موسى البحر، وسنسكر شرقي النهر بعدما تغتصبون الحورانيات في المدينة الكبيرة، وعلى تلكم المسارح الضاربات في التاريخ من جرش وطبقة فحل إلى أم قيس.

اليوم سأطأ بدبابتي هذه كل موقع مشت عليه عربات الرومان في بلادهم، وسأهدم كل بناء شُيِّد تكريماً لإمبراطورها "ماركوس"، اليوم سأبول على كل بيت وقصر أقام به الإسكندرالمقدوني، وسأنبش قبورهم قبراً قبراً حتى أستخرج كنوزهم المخبأة، وسأشتري بثمن هذه الكنوز ملابس داخلية للمجندات الاسرائيليات وأحوِّل قصور الأمويين وخزنة البتراء إلى معابد يهوديه.

سأجعل من قلاع صلاح الدين الايوبي بارات، ومن صحاريهم مجرد ساحات لسباقات الخيل والجمال، سأعيد زمن العبيد والجواري، وأجعل من بدوهم وفلاحيهم كلاباً تحرسنا في منامنا.

لا شيء في هذا العالم الضيق يقسو كما تقسوا تلك الأسلحة المغمسة بالحقد والكره، ولاشيء يفتك مثلها، لاشيء يضاهي بشاعتها حينما تصب نيرانها على أرض كأرض الكرامة، تلك الأرض الملتصقة بالنهر المقدس، فلا يحل منها ولا تحل منه.

يا نهرُ، ألا تفيض وتوقف زحفهم عنّا ؟ ما بك نرجوك النصر لنا ولا تنتصر، نستجديك الرضى علينا ولا ترضى، نطالبك بالفوران ولا تفور، بالهيجان ولا تهيج، وكأنك لا تعلم بأن الموت يحيق بنا، وكأنك لا تعلم كم نحن ضعاف من دونك.

يا نهرُ، ألا تَذْكُرنا ؟ نحن أبناء المهزومين يوم النكسة، إذ هرولنا هاربين تاركين القدس خلفنا على غير استحياء منك ومنّا.

يا نهرُ، هنا الموت يأتي ملء العين بعدما حاصرنا الخوف وحبست السماء مياهها عنا، أفلا تفيض فتغرقنا بمياهك فنتطهر من جُبننا ونُرَدُ إليك ؟

مرعبةٌ هي مدافعهم حيث لا يُسمَع صوتٌ سوى صوتها، وثقيلة أصوات قنابلهم على القلوب فتوقفها عن النبض من قبل أن تصيبها شظاياها، في ثوانيها الفاجعة والانهدام والحجارة المتكسرة.

بهيجة أم الجواري قالت: اللعنة على الفتاحويين

والجبهاويين، لولاهم ولولا استعراضاتهم النضالية السخيفة لما جاء هؤلاء الاسرائيليون إلينا، وها هم الآن يهربون بحجة حماية خطوطهم الخلفية.

رامي البندري يتخندق من بعيد خلف الجبال المطلة على النهر، يتساءل محتاراً: لِمَّ لا نهجم؟ ما بالُ مدافعنا متمسمرةً كالحجارة وكأن الحرب لا تعنينا، وكأن الحرب لا تلتهم أراضينا؟ ما بالها عقمت عن إنجاب النيران بوجه هؤلاء ؟ أيُّ فائدة نرجوها من الرصاص الذي بحوزتنا إن لم يكن هذا أوان إختباره وإختبارنا معه ؟ أي أوامر حمقاء هذه التي تدعونا للتريث في الدفاع عن فضاءات أوطاننا ؟

نظر بعيون الضابط الشاب علي القاسمي وسأله إن كان يؤمن بقوة مجرمين أخبرنا أهلنا عنهم بأنهم مجرد جبناء ؟

لكن الضابط الشاب لم يجب، وبقي معلقاً بصره بالطائر الوردي الذي يخوض الحرب نيابة عنه وعن جيشه، نيابة عن حركة فتح والجبهة الشعبية والصاعقة، نيابة عن الإخوان المسلمين والقوميين وكل اليساريين، يستمع للجندي الذي يهمس ويقول: لا، لن أكون خائناً مثلكم، أبي أوصاني الا أكون خائناً أو متقاعساً.

الرقيب أول رامي احتضن سلاحه مخافة أن يهرب هذا السلاح من بين يدية، قال له: الكل يستعد للخيانة وأخاف إن

تركتك أن تخون، الكل يستعد لتلك اللحظة التي يدير فيها ظهره للعدو وأخاف أن تتعلم منهم الدوران وتنسى درب المواجهة من جديد.

حمل منظاره يتابع سير القصف والموت والتدمير، رأى القنابل وهي تهبط كالمطرالأسود تحمل الموت والدمار، رأى بيارات الليمون والبرتقال كيف تُقتَل فتصيح بالجنود مستغيثة فلا يغيثها سوى الطيور الوردية، تلك التي تحاول فعل شيء ولا تستطيع.

لن يذكر التاريخ بعد انقضاء تلك الحرب دور الطائر الوردي، ولن يذكر بأنه وقف بوجه راحيل وجيشها حينما علم بأنهم يضمرون النية لاصطياده ووضعه في الأقفاص يُزَيّن بيوت الجبناء والذين لم يشاركوا في الحرب، لن ينصفه وهو يحصي أعداد الشهداء من دون الإتيان على تضحياته وشجاعته في ذلك اليوم.

ولن يذكر التاريخ الذي كُتِب بيد أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن هذه الطائر لم يتساءل ماذا عسانا نفعل لهكذا جيش، بل سأل بماذا سيعاقبنا الوطن لو لم ننتصر له اليوم؟ وسيكون العالم فجّاً غليظاً حينما يصنع ألعاباً للأطفال على شكل ذلك الطائر، وسيكون الصيادون قُساةً عليه بقساوة راحيل وأكثر.

الله أكبر حتى الطيور كانت أشجع من قياداتنا وقيادات فتح، فصرخت حينما صمت الجميع، وصاحت بملء منقارها: وطن.

الأوامر لا تصدر، فثمة جهة ما في هذا الكون جعلت الأفواه بكماء.

فمن ألجم نبض القلب الساعة ومن أخرس صوت الحق اليوم؟ من حاول اغتيال جمر حكايات التاريخ من صدورنا ؟

كل شيء من حوله جعل الدم يتحرك في عروقه، شخصت عيونه نحو الكرامة تتحسس الطريق نحو القيم التي أضعناها يوم النكسة، لا يرى ولا يشعر إلا بالوحوش البشرية النازحة إليه، فَقَدَ اتصاله الذاتي بمن حوله وكأنه في مدينة الأشباح التي سمع عنها ولم يرها، ومن أين لأطفال الفقراء أن يقطنوا تلك المدن ؟

نهض من الخندق يجر كل تعاليم والده كما لو أنه بوذيٌ زهد مرة واحدة في الحياة ولن يعود لها، نهض وكله إيمانٌ أن عليه أن يموت حتى يحيا الوطن.

رأى نفسه مكفناً ولن يفصل بينه وبين كفنه أي فاصل مهما فعل، فلا جدوى من التواري في هذه الخنادق إن كانت ستحمينا ولا تحمي أمهاتنا من خلفنا، صار مكشوفاً للعدو وكاد ينسى أنه في حرب ومن المفروض أنها ستأتي على كل شيء في هذا الوطن.

لا لم ينس، فلا أحد يستطيع نسيان شيء في هكذا موقف، ولا الذاكرة بقادرةٍ على أن تغفو ساعة واحدة.

صاح بالاسرائيليين غير آبهٍ بكل معداتهم وترساناتهم: اقتلوني يا محترفي الإجرام أنتم، اقتلوني مع الطائر الوردي فلا أريد أن أحيا مع أمة قُتِل وطنها أمام عينيها دون أن تفعل له شيئاً، اقتلوني فلا حبيبة أعود لها، ولي أمّ ستموت قهراً لو رأتني مهزوماً، أمي التي علمتني أن أضرب كل أبناء الحي لو ضربوني، لو سخروا يوماً من بنطالي العتيق.

أخذه هول المصيبة والموت، وراحيل كان يأخذها زهو صمتنا وجُبننا وهروب الفتحاويين.

لئن كنت ترى الحدث بعينيك، فهذا يعني أنك ستتخذ موقفاً حياً منه، يفرضه عليك الزمن القائم والحدث الجاري، وأن تعيش الحدث بنفسك فهذا يعني أنك لن تسمع صوتاً سوى صوتك أنت.

وكذلك كان رامي، لم يسمع إلا صوته ونداء قلبه حيث هَمْسُ أبيه القادم من القبور، وهل من صوتٍ غير صوته يمكن أن يُسمَع الآن ؟

سمع صوت عقله الباطن وضميره الحي وروحه إذ تناديه وماسمع من أصوات غير هذا الصوت، بيد أنه رأى أصوات الآخرين، رأى أصوات رؤوسهم إذ تتساقط مُحدِثة تلك الجلبة في المكان، رأى أحقاد راحيل وهي تنثر الرصاص في الأرض كما القمح أيام يُزين صفد ويافا قبل أن يأتوا.

مضت الساعات الأولى من المعركة ولا شيء يردعهم عن الاطاحة بأرواح الخلق من غير تمييز بين مقاتل وجائع، ولا بين لاجئة ومُعِد خطة هجوم فاشلة عليهم، مضت الساعات الأولى، ويا ويح الساعات الأولى كيف مرت على الرصاص المتجمد في البنادق يأبى الخروج، متحججاً بحجج أصحاب البدل العسكرية الأنيقة من أن نقطة الصفر لم تحن بعد لبدء الهجوم المعاكس على هذا الجيش الوافد من الجحيم.

بثينة الصالح صاحت من فوق جبال صويلح تأمر الجنود بالنزول للمعركة، توبخهم قائلة: هيا افعلوها ولو مرة واحدة في حياتكم وانتصروا أيها الجبناء، شاهدتكم بالنكبة والنكسة فاجعلوا من الكرامة تعويضاً لكرامتكم التي بعثرتموها.

لن ترجعوا دون النصر ودون ابني، لن تظفروا بهزيمتكم وتتركوا ولدي يقاتل في الساحات وحيداً، لن ترجعوا من دونه والنصر، اثأروا واحموا البلد واحمونا.

حملت سلاحاً كما لو أنها محارب قد خبر الحروب، وقفت على الجبال المطلة على المعركة، استجمعت قوتها وصاحت بكل المحاربين: لن ينجو هارب منكم اليوم، وسأقتل كل من يدير ظهره للموت.

هتف قلبها ينادي قلب ابنها إذ يقول: اصمد يا حبيب أمك ويا رجلها، إني أحميك من هنا ولن تكون وحيداً هناك في الميدان.

أنجبته قبل أن تتم العشرين من عمرها، وها هي على وشك أن تفقده قبل أن يتم هو العشرين من عمره، أنجبته وهي تظن أنها ستدفن بولادته كل صنوف الأوجاع والآلام، وهيهات هيهات للأوجاع والآلام أن تدفن أو تتوارى في بلادنا.

كان صديقها وأنيسها بعدما مات أبوه، واليوم ها هي قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح ثكلى وحيدة بالكامل، فأيُّ فرحٍ سيتسلل لأيام عمرها لو لم يعد لها اليوم.

حلمت كبقية الأمهات لو تزوجه فتاة مكتملة الأنوثة والشبوبية، تزفها له بفستان أبيض يكشف عن صدرها دون رقبة توصله بكتفها، يتحدث الناس عن طولها واستدارة وجهها وسمرتها الجميلة، تأتيها مع ولدها في يوم مشمس عند الكُشك تخبرها بأنها ستصبح جدة، فتسمي المولود على اسم زوجها الذي عاش ومات غريباً.

خطبت له أكثر من واحدة من بنات صويلح، فكانت تُقابل بالرفض دائماً بحجج وأعذار ما فهمتها حتى اليوم، فالفتاة الشركسية ادعى أهلها أنهم لا يُزوِجون بناتهم للعرب، من غير أن يتيقنوا إن كان رامي من أصول عربية أم لا.

أما الأخريات فكانت أجوبتهنَّ متفاوتاتٍ متضارباتٍ لا تُنِمُ عن سبب حقيقي يستوجب الرفض، فمنهنَّ من بررت عدم قبولها الإرتباط برامي اقترانها بابن عمها، وأخريات تذرعنّ بفقر

رامي وبأنه ليس بصاحب مال.

لكن الحقيقة لم تكن أيّاً من كل هذه الأسباب، بل كانت في أن رامي لم يكن له أصل أو نسب يُعرَف به، لا من جهة الأب ولا من جهة الأم.

نكرات نحن الفقراء في هذا الوطن يا رامي.

كنانة العمانية جاءت حبيبها من حيهم الغربي تسأله الذهاب إلى المعركة، والالتحاق بصفوف المقاتلين مع رامي الذي يصغره بنصف عقد، يقف في الجبهة يلوذ معه ومع جيشه عن البلاد والعباد، يمارس رجولته معهم في صدٍّ من يحاولون اقتحام حصون الوطن واستلابه، فهناك مكان الرجال الآن ولا مكان لهم غيره.

فرد عليها ممازحاً بلا مبالة، وما كان مزاحه ظريفاً: أبناء الذوات معفيون من الانضمام للجيش والمشاركة في الحروب، فنحن لا ننتمي لصفوف المحاربين، مواقعنا ليست في المعركة وإنما في شركات آبائنا ومناصب الدولة الإدارية والقيادية العُليا، والتي نستطيع من خلالها خدمة البلد على نحو يناسبنا ويلائمنا.

قال لها: الحرب خُلِقَت للفقراء وليست للأغنياء، ألا ترين كيف تعفينا بلادنا من التجنيد الإجباري مقابل ضريبة رمزية ندفعها؟

فأحست بدرجة تفاهته والتي لاتقل عن تفاهة قياداتنا في ذلك اليوم، فأيٌّ غراب نطق من على لسانه وأيٌّ أحمق مختال يعيش في داخله ؟

قالت له وهي تمضي عنه كلمة واحدة ولم تزد عليها بحرف: انتهينا.

*****

في يوم الكرامة ذُهِلَت كل مرضعة عَمَّ أرضعت، وشُوهِد الفدائيون سُكارى وما هم بسكارى، فقد فُتِحَت شهية الاسرائيليين على الموت، وقال كل واحد منهم للآخر: للفلسطيني اليوم خيارات كثيرة تصب جميعها في موته، وحتى لو اعتقد أنه ناجٍ بهروبه، فإن طائراتنا وصواريخنا ستلاحقه، اليوم نهاية الفلسطيني وسيلتحق بأجداده ورجالات تاريخه قبل انقضاء النهار.

يا للمعركة المتكافئة بين إمكانيات العالم التي وُضعت بأيديهم وتحت تصرفهم، وبين امكانيات شعوبنا المتهالكة الضعيفة.

أين العالم يرأف بهؤلاء القوم وأين الله يحفظ لنا النهر وأرض الكرامة ؟

رامي سأل الضابط القاسمي إن كان من الواجب عليهم أن يهجموا الآن وقد صاروا متأخرين عن الهجوم بمراحل كثيرة؟

فرد الآخر عليه وقد بدا الشك يتسلل إليه: لا، فالأوامر لم تصلنا من القيادة السياسية بعد.

رامي خاطب الضابط القاسمي: سيدي، ألست ترى كيف حصدوا المنطقة ونكبوها ؟ ألست ترى أن قيادات المدينة يتلكأون عن إصدار الأوامر لسبب أنا وأنت نعرفه في باطننا ؟ فرد الآخر بصوت متقطع مغصوص متحشرج يملؤه الشعور بالذل وبالقهر: انتظروا والتزموا أماكنكم، القيادة أبرقت لنا تخبرنا أنها تبحث عن نقطة نخترق من خلالها جيشهم.

رامي قال للضابط القاسمي: سيدي، إن اكتمل إنزالهم على أرض ضفتنا، فلن تستطيع كل جيوش العرب الإنتصارعليهم أو حتى إعادتهم إلى ما خلف النهر. ألا ترى كيف يزحفون للإلتفاف علينا من الجهة الشرقية، وعندها سيفصلوننا عن المدينة ويقضون علينا وهم في طريقهم صوب أهلنا في صويلح.

القاسمي كان مقتنعاً بكل مايقوله رامي ومؤمناً به، لكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة يحاول أن يعطي القيادات السياسية فرصةً لتكون لاعباً أساسياً في الحرب، فلما أيقن أنها لا تُريد هذا الشرف الرفيع، أمر الجنود وهو ينظر صوب العقيد مشهورالجازي بأن يصوبوا مدافعهم ويكونوا على أهبة الإستعداد، فقد يخوضون الحرب وحدهم.

رامي صاح بالضابط القاسمي: سيدي، عبروا النهر ودنّسوا الارض، مشطوا المنطقة وزرعوا فيها الموت شوكا.

سيدي، في المنطقة بقايا نساء وأطفال وجرحى.

سيدي الأرض، سيدي العرض، سيدي غضب الله إن تأخرنا.

وسط لعبة الموت هذه كان الجندي النكرة يعانق حزنه على تدنيس أرضه، يذهب ببصره نحو الطائر الوردي فيستلهم منه الكرامة ويسأله: ماذا يفعل بكل هذه الحَميّة التي تطوق قلبه وجوارحه؟ طاقته على القتال لِمَنْ يبقيها، لِمَنْ يدّخرها ؟

قال لنفسه: لِمَّ رابطنا هنا ؟ لِمّ أمضينا كل ما أمضيناه بالإعدادات والتدريبات؟ هل كنّا مجردَ جيشٍ استعراضيٍّ وحسب؟ وظيفته التدريب لأجل التدريب ذاته لا من أجل خوض غمار الحروب والمواجهات؟ هل سنتركهم ينجّسون السنديان والياسمين، ويُغالون في قتل الطائر الوردي ؟

وأمه الجالسة في الكُشك في ضاحية "صويلح" تبيع الأعشاب الطبية، كيف يأمن عليها بعد اليوم ؟ ماذا يقول لها لو عاد مهزوماً ؟ كيف سيتجرأ على زيارة قبر أبيه لو ولى مدبراً ؟ ثم من يضمن له أن تبقى معالم قبر أبيه واضحة غير مطوية ؟

وطن بأكمله سيطوى لو انهزم.

فمن لكُشكه الذي ورثه عن أبيه يحميه ؟ من لبيت أبيه الذي بناه بأحلامه وأمانيه يرعاه ويبنيه ؟

انسكب دمعه سيالاً وهو يتخيل راحيل تستعبد أمه وتضربها بسوطها الغليظ وقد أخذت الكُشك وصارت تبيع فيه المشروبات الروحية.

رأى يوشع ينهض كعملاق أسطوري، كمخطوطة من مخطوطات العرب في مكتبات برلين وأنقره، رآه يبزغ كشمس منيرة، يناديه من خلف النهر ويقول له: يا رامي البندري، أمل النهر فيك فلا تخذله، يا رامي البندري، عبرت قبل آلاف السنين من هنا، من حيث تقف وتغرس قدميك، فهل تعبر ؟

يا رامي البندري، معك نبوءتك ومعهم نبوتهم، معهم من النيل إلى الفرات ومعك أنتم شرقي النهر وهم غربيه، أنت الحكم بين الأديان فاحكم، قُل كلمتك صوب سلاحك، ما حلَّ بتلك الفلسطينية سيحل بأمك، فماذا تنتظر ؟

كل الثيران التي راهنت عليها أكِلَت، فعلامَ تُراهن يا ابن العدم أنت.

يا رامي، أنا تاريخك وأنت امتدادي، منذ آلاف السنين وقفت حيثما تقف أنت اليوم، غارساً في التراب قدمي مثلما تغرسها أنت، جاءتني صبية من بني قومك، لها نفس عينيك وكبريائك، لها نفس غضبك وفيها شيء من صوتك وهديرك، فقذفت فيها من مائي لتحل بركتي وقدسيتي فيها، وتركتها تتناسل إلى أن جئت أنت.

أوَ لستُ أباكَ فما بك تريد أن تعصيني ؟ ما بك لا تقوى على القدوم إليَّ وكأنك لا ترغب بلقائي.

هيا، صُن عهدي وأكمل دربي، اضرب بسيفي وقل كلمتي المؤجلة منذ دهور، قُلها اليوم فلن يأتيك مساء بعد اليوم لتقول شيئا.

يا رامي، من ألوف السنين أوقفت الشمس عن المغيب حتى انتصرت بجيشي، واليوم لا تجد الشمس من يأمرها بالشروق إلاكَ أنتَ يا ابن التاريخ والأيام، فأمرها.

رامي البندري لم يكن ماركسياً ولا إخوان مسلمين، لم يميز بين السلفيين والصوفيين، لم يفهم البعثيين ولم يؤمن بمنظمة التحرير الفلسطينية، لم يكن يسمع لخطابات جمال عبد الناصر ولا كان مغرماً به، لم يهتف للملك حسين يوماً ولم يكن يروقه الحبيب بورقيبه، فقط أحب هواري بومدين، أحبه من غير أن يراه.

لم يكن مبدعاً في المدرسة، بالكاد أنهى المرحلة الإعدادية بعد جهد ومشقة ليحصل على شهادة "المترك" فقط، وينهي بها مشواره في التحصيل العلمي، فلم يدرس في الجامعات الغربيه ولم ينظم إلى أحزاب سورية ولبنان.

لم يكن له أصدقاء يسهر معهم ويتبجح أمامهم بتحليلاته المصيرية للواقع الراهن، لم يكن له أقرباء يصف لهم مغامراته

الوهمية على الجبهة، لم يكن له سوى أم وكُشك وجيش ووردة ياسمين يحرسها.

كان إنساناً، آمن بإنسانيته ودوره البسيط في هذه الحياة وحسب، لم يتبجح بتاريخ أجداده ولم يُثبت لنفسه نسباً مزوراً لقبائل اليمن والحجاز، هكذا وُلِد وهكذا يموت وهكذا يبعث حيا.

والده جاء ضاحية صويلح في الأربعينيات من القرن العشرين، من غير أن يعرفه أو يميزه أحد فيها، خبأ تاريخه وأصله وما مضى من عمره خلف لهجات السكان التي كان يتقنها ويخُبرُها كمثل ناطقيها وأكثر، فقد كان يتحدث لهجة الفلاحين بطلاقة ويعرف أماكن إقامتهم، ويعرف لسان البدو وسِيَرِهم وأخبارهم وعشائرهم وتقسيماتهم وأفخاذهم وبطونهم.

ناهيك عن لهجة أهل الضفة الغربية ومصادر ثرواتهم ولهجة الساحل الشمالي الفلسطيني ومجال أعمالهم، وإذا ما رأى شركسياً أو شيشانياً فإنه يدخل معهم في تفاصيل بلاد الشركس والشيشان بشيء من لغتهم المكسرة كما لو أنه واحد منهم، فيعجبون منه كيف يعرف عنهم كل هذه الأشياء التي يعرفها، أما الغجر فإنك ما كنت تميزه عنهم لو انخرط فيهم مندهشين منه لإتقانه أهازيجهم وأغانيهم.

ظل الناس طوال إقامته فيما بينهم يتنبأون ويجتهدون في

نسبه، منهم من قال بأنه ينتمي لمدينة "الطفيلة" جنوبي البلاد، قتل والده وهرب إلى صويلح خوفاً من إخوانه الباحثين عن ثأر أبيهم منه، ولكن احداً منهم لم يأتِ.

ومنهم من قال إنه مسيحي، يتوارى عن أهله بعدما تغير إلى البروتستانتية من الكاثوليكية، وادعى أحد الشوام مرة أنه يُشبِّه عليه بتاجر من حلب.

ظل سر المدينة الغامض، وإذا ما سأله أحد عن نسبه وأصله وفصله لاذ بالصمت ولم يجب، وحتى زوجته بثينة الصالح التي انتقاها من دار الأيتام والتي وُجِدت على باب الدار وقدروا عمرها آنذاك بشهر أو أقل لم تعرف هي الأخرى عنه شيئاً، وكلما سألته عن هذا الموضوع كان يقول لها: نحن من هنا يا بثينة، نحن من صويلح وليس لنا مكان سواها.

ومع أنها رجحت أنه حجازي قدم مع رجالات الثورة العربية الكبرى وقوات الإنجليز، ثم انصرف عنهم إلى "غزة" ليظهر بعد ذلك في مضارب قبيلة "الدعجه" في منطقة "طبربور" شمال العاصمة، ومن هناك انتقل لاحقاً إلى صويلح، إلا أن هذا ما كان يمكن إثباته.

بثينة الصالح أحبت زوجها حباً جما، كانت تتغزل فيه وتقول له كلام العشاق الجميل، أما هو فكان يُدلِّلها ويلقبها بالملّولة نسبة إلى شجرة الملّول البلوطية، جهمة هي عريضة

المنكبين، جميلة ممتلئة صلبة متراصة أعضاؤها كالزجاج قوية ملساء، يهبط صوتها معه ويعلو كهدير الماء مع الزبائن.

ولو لَمْ تكن إبنةً لدار الأيتام لخطبها أناسٌ من عِلية القوم وأغناهم، ولكنها رضيت بقسمتها ونصيبها وأحبت زوجها كل الحب، ومع الوقت لم تعد تفكر بأهلها وذويها وغادرها شعور النقمة عليهم لأنهم وضعوها على باب الدار.

كفَّت أسئلتها المتعملقة برأسها عن التنغيص عليها، أسئلة لطالما دارت رُحاها في حلقة مفرغة، تبدأ من ولادة الفقر وتنتهي بولادة المغامرة العاطفية غير المدروسة، لم يعد الموضوع يهمها أو يشغل شيئاً من اهتماماتها.

انتزعت مرارة الفكرة وألمها من قلبها وتوقفت عن ادعائها من أنها ابنة أول شهيد أردني على أرض فلسطين، المناضل الشيخ كايد مفلح العبيدات من زوجته الثانية التي تزوجها سراً والذي قضى نحبه في تل الثعالب في عشرينيات القرن الماضي، من دون أن تعلم أن ذاك الشيخ لم يتزوج في السر أصلاً ولم يكن له أولاد مجهولون، فما كانت النساء والأولاد تشغل باله في ذلك الوقت، بقدر ما كانت القدس تسيطر على كل تفكيره.

مضت إلى حياة البندري الكبير بكل تعلقٍ وانجذاب، بكل وهج القلوب التي تمضي نحو الحياة والأمل، كانت تلحقه كل يوم إلى الكُشك بعد أن تنتهي من واجبات منزلها، تجلس بجواره

يتسامران فلا تمل منه ولا يمل منها، وفي الليل كانت تستعد له وكأنها في ليلة عرسها الأولى.

كان يقول لها: أنت يا ملّولتي فرحة عمري المجهول، فإذا ما دخل عليها وهدأ صهيله بعد أن يقضي منها وطره، كانت تلعب بشعر صدره بعض الوقت حتى يرتاح، ثم تجهزعليه وكأنها عشر أندلسيات قد توحدنّ في امرأة جنوبية، كانت وهي تعتلي بطنه تسأله من غير أن تنتظر منه جواباً: أيُّ ملك جميل ذاك الذي سأنجبه منك ؟

وما علمت بثينة الصالح أنها لن تكون كأم الملوك، فأمهات الملوك الحقيقيات يمتنَ قبل أولادهنَّ ولايشهدنَّ مصرعهم ولا رحيلهم عن الدنيا، وماعلمت أنها لن تكون كعائشة بنت محارب أم عمر المختار، وأنها ستقعد على صغيرها تربيه وترعاه وتصنعه بعينيها بعد وفاة زوجها كما فعلت الأخرى من غير أن يدفنها بيديه ويتقبل عزاءها، وما علمت أن الأقدار لن تمهل ولدها ليعمر كما ينبغي للملوك أن يعمروا.

لهذين وُلِد رامي البندري من غير أن يعرف عن قبور آبائه وأجداده شيئاً أبدا، قال له والده يوم كان يحتضر، وكان لا يزال يومها دون سن العاشرة: إن وطنك الحقيقي هو ذاك المكان الذي ترتبط روحك فيه، وتتولد فيك الرغبة الحقيقة لتكون جندياً مخلصاً من جنوده.

معنى الوطنية ألا تخون التراب ومعنى الرجولة ألا تخدع امرأة علقت آمالها عليك.

مات الرجل ووصلت الرسالة على بساطتها لا لُبْسَ فيها، وصلت كما أراد لها أن تصل كاملة غير مجزوءة، واضحة الأفكار غير مبهمة، ففهمها ولده على أن الوطنية تعني فيما تعني أن يكون المرء جندياً في الجيش.

معادلة سهلة وبسيطة، والأمر لا يحتاج إلى كل هذا الكم الهائل من المحاضرات والندوات والمؤتمرات والدراسات.

هكذا تراءت له الوصية وعلى هذا الشكل فهمها، لم يُعرِّفها بغير هذا التعريف، لم يُضف للفكرة أي جديد، وقف عند حدود فهمه لها، ولم يعط الكلام معنى آخر، ولما قطع من عمره سبعةَ عشرَ عاماً غير ناقصة، انضم للجيش ظناً منه أنه ينفذ بهذا الانضمام وصية والده.

يا الله، ليت الجميع يفكرون كما تفكر يا ابن الملّولة، ليت لهم بُعد نظَرٍ كما هو لك، ليتهم دخلوا مدرسة أبويك حتى يعلموا أن في الحياة أشياء كثيرة يجهلونها وحبذا لو تعلموها.

المدافع تقذف والدبابات تتقدم، وجبة صغيرة من الإجرام هو ما ينقصنا لتزول منطقة الكرامة عن الوجود، ويتلاقى الجنود على وجبة غداء في الجنة.

راحيل تبدل قميص نومها بآخر، تصيح برامي البندري مقهقهةً في المكان فتشمئز منها الصخور: أيها التائه الصغير، إنَّ اهلك لم يتعودوا النصر من قبلُ وهذه الحرب الجديدة ستطحنك، ما أنت وأهلك إلا حِمْلٌ زائد على البشرية وقد حان الوقت للتخلص منكم وإراحة الإنسانية من جهلكم وتخلفكم.

سيطاردك رجالي فلا تقاوم، ألقِ سلاحك أنت مغلوبٌ لا محالة، لست تملك شيئاً سوى غبائك وبعضُ فصول من تاريخٍ مزورٍ صنعه أبوك من إفلاسه، لا تستمع لقلبك، فلطالما خدعتكم قلوبكم وخدعتموها، ولطالما سُقتُموها لنهايات لم تكن بحساباتكمُ وحساباتها.

قالت له وهي تتغنج بضحكاتها متمايلة: اليوم يوم اقتلاع البيارات واحتراق الياسمين.

عند نقطة ما في حياة كل واحد منَّا، يفقد المرء قدرته على التحمل، على الصبر والحلم، على التمييز بين الحقيقة والوهم، حقيقة الشخصيات التي يراها: الوهمية من سواها، الأحداث التي يعيشها: صدقها من كذبها، وصاحبنا الجندي الرقيب وقع بهذا الشَرَك ليفقد شعوره بما يدور حوله، وليقف مذهولاً من خندقه، غير متمَترسٍ خلف حواجزه.

فلم يعد يشعر بما يدور حوله، ولما رأى الجنود حالته تلك انقضوا عليه يحموه من أي تصويبة غادرة قد تأتي من هؤلاء

المجرمين الذين يواجهونه على مقربة منه، وسيتساءل الطفل المتسول الذي أختبأ خلف حاوية النفايات هناك بالقرب من بلدية صويلح إن كان يمكن اعتبار الرصاصة التي تأتي من الأمام ووجهاً لوجه رصاصة غادرة.

ولن يجيبه أحد.

الضابط الشاب المرابط على ذات الجبهة وذات المصيبة علي القاسمي عنَّف رامي وهو يصفه بالحُمق والتهور، إذ كان سيعطيهم روحه من دون مقابل ومن دون ثمن، فقال له: لن يعبروا اليوم إلى أمي، لن يصلوا الكُشك، لن يطأوا قبر أبي أبداً.

سيكون القاسمي فيما بعد الشاهد الوحيد مع العقيد مشهور الجازي على حقيقة ما جرى في ذلك اليوم، والذي سيختلف معه لاحقاً حول حقيقة اشتراك الفدائيين في الحرب أم لا.

رامي لم يكن يسمع إلا يوشع، وعقله الصغير لم يكن يحتمل كل هذا النداء والموت.

يوشع طار محلقاً إلى السموات العُلى، فُتِحت أبوابها أمامه واحدة تلو الأخرى، إلى أن وصل السماء السابعة بسرعة الشهداء إذ يلاقون حتفهم، بسرعة الموت إذ يخطف أحبتنا من دون أن ندري، من دون أن نحذر.

تقدم نحو عرش الله بخطى ثابتة لا يعتريها الشك ولا

القنوط من تحقيق مطلب هو يريده، خرَّ ساجداً على الأرض، فقال له الله: أيْ عبدنا ونبينا المخلص يوشع، سَلْ تُعط.

فقال: يا رب، إنْ تُكسَر هذه البلاد اليوم فلن تقوم للصالحين قيامة بعد اليوم، إن يُهزَم جيش رامي البندري في هذه الحرب فلن يكفيك نصف البشر أنبياء حتى يصلحوا ما ستفسده هذه الشمطاء راحيل.

تجمد كل شيء في الكون إلا الله ويوشع، نهض الرحمن من على عرشه وأمر يوشع بالنهوض، وقال الرب جل جلاله: أيْ عبدَنا ونبينا المخلص يوشع، إني قد نذرت المسيح لآخر الزمان، ولكن رحمتي وسعت كل شيء، فخذه معك وأنزله إلى الكرامة ليقول كلمتي ويرجع.

حمداً وشكراً لك رباه.

وخرج من قاعة العرش الرباني مسرعاً يُفتش عن المسيح في السماوات إلى أن وجده بانتظاره في السماء الرابعة، عرف المسيح أن هكذا كارثة تستدعي كلمة من الله هو قائلها، وأن الوقت قد حان للإنتقام ممن وشوا به لملك القدس الروماني وأغلظوا قلبه عليه فكان منه ما كان.

هبطا سوية نحو الأرض، وبسرعة الأحلام توجها إلى بلاد الشام ومن ثم دخلا غور الأردن، كان المسيح يعرف هذه البلاد جيداً، فبإحدى ضفتي النهر وُلِد وبالأخرى عبر وتعمَّد.

نسي يوشع أن يستأذن الله بعبور النهر للشرق، فما كان منه إلا أن ذهب إلى الضفة الأخرى تاركاً المسيح يتقدم نحو البندري متجاوزاً كل الجنود على جبال الشفا المطلة على الموت.

رآه رامي البندري، ورآه الضابط علي القاسمي، وما رآه بقية الجنود، فوضع يده على رأسه وقال: يا رامي بن بثينة، باسم الرب أشفيك، فشفي.

عاد له صوابه وهدأ روعه، وقف كشجرة بلوط تغوص جذورها في الأرض فلا تهزها العواصف ولا الأعاصير، وقف كالسنديان يشهد تاريخ شعب لا يموت، وأمة تنكسر ولا تنهزم.

ابتسم المسيح بوجهه وأعطاه وردة الياسمين، وقال له: أوصلها ليوشع على الضفة الأخرى للنهر، سِر أمامي وتعال نقابله لنعانق النصر، أنا أحمي خطواتك وأحمل معك أملك، أقاسمك مخاوفك فلا تحمل الهم كله وألقِ بعضه على كتفي، فلا تُرعِبَنَّك هذه الرواحيل، فما هي إلا مجرد وهم ونحن الحقيقة. وتذكر أن جنودها سيغتصبون الليلة امرأة ما في هذه البقاع، فقرر أنت إن كانت هذه المرأة أمك أم أمهم.

ناداه يوشع من الجهة المقابلة وقال له: يا رامي البندري، لا تدع أحداً يأخذ صوتك، قَدَرُك أن توصل الوردة فلا تتردد، صوت أمك يناديك مغرداً: أنْ احمي عرضي وكُشكي وكن أنت البطل.

التَقَمَ الوردة وهو يمسك حفنة من التراب ينثرها بوجه جنود جيشه، فوصلت بعض ذراتها إلى وجوه عدد من هؤلاء الجنود، فالتصقت حباتها بوجوههم الباكية والمتعرقة من مشاهد مجزرة

شاهدوا مثلها قبل أقل من عام في عام النكسة، فهل ينتظرون نتيجة كنتيجة تلك النكسة ؟

وبصوت واحد يشبه صوت آلام المخاض وأوجاع الولادة، صاح يوشع ورامي البندري فاهتزت الارض لصياحهما: أيا تراب الديكابولس، نحن ورثتك، ولن يطأك غيرنا، لن تكون لأحد سوانا.

هجم مندفعاً فتدافع الجنود خلفه، وكأنهم من الأرض إذ تنشق يخرجون، ها قد حان الوقت ليقول كلمته كما يريد أن يقولها المسيح، ولتأتِ جولته بعد أن كانت للباطل جولات.

الضابط علي القاسمي رمى جهاز الإرسال الذي يربطه بالقيادة العليا ولحق برامي يقول له: أنت القائد هنا يا كليم الأنبياء ولستُ أنا، فردهم واعبر بنا.

رامي البندري كان ممثلاً لله والأنبياء والصالحين في هذه الحرب، أما ممثل الوطن ومندوبه فيها فقد كان العقيد مشهور الجازي، الذي آمن أن التاريخ والوطن سيُحَمّلانه هو دون غيره مسؤولية الهزيمة لو وقعت اليوم.

فما كان منه إلا أن أصدر تعليماته للجيش بالالتحاق برامي البندري، على مسؤوليته ومن غير الرجوع للقيادات السياسية والعسكرية.

من يومها والكثير من تلك القيادات لا تحب هذا الرجل.

كان باسلاً هذا الجازي وكان رجلاً.

بشراسة النمور إذ تؤمن أن المسألة أكبر من مجرد الموت والحياة، هجم رامي عليهم يخترق صفوفهم، كان بلا واقٍ للرصاص، أقسم أن يحمي وطنه بصدره وقلبه، وأن ينتقم لدموع أمه وهلعها عليه، أقسم ان يثأر للطيور الوردية التي لاقت موتها وحتفها على أيديهم النجسة.

فتقدم ومن خلفه جيشه، صدّوا، قتلوا، لاحقوا وحاصروا، لن تسرقوا سنديان بلادي، لن تصادروا بيارات أجدادي.

من بعيد جاء أبو عبيدة عامر بن الجراح، يصهل من على حصانه، نهض من مقامه غير البعيد عن موقع المعركة، بعدما سمع صوت الموت والاحتلال والظلم والبطش، واشتم رائحة العنجهية والغطرسة والبغض والحقد واللؤم.

مرَّ يلقي التحية على المقاتلين بلغتهم المحلية: حّي النشامى حيهم، وظل يقطع الجيشين المتلاحمين إلى حيث انسحب الفدائيون وما تبقى من رجالهم.

صاح بهم: أيها الفنيقيون، إن الأنباط قد دخلوا المعركة وها هم يذيقون المغول أشد أنواع العذاب، ولن يكون الانتصار حلواً بدونكم فتعالوا لتضعوا لمساتكم على وليمة النصر هذه، تعالوا وكونوا مع رامي البندري وعلي القاسمي والعقيد مشهور الجازي.

بعضهم كذب الخبر وأكثرهم شككوا به، ولكنه أبو عبيدة يا رجال، أمين الأمة وكبيرها، وهيهات للصحابة أن يكذبوا، غير أن المسكونين منهم بنظرية المؤامرة رأوا أن هذا الكلام ضرب من المستحيل، وأن هذه هي إحدى مكائد الحكومة للإيقاع بهم والقضاء على ما تبقى منهم.

لكن العقلاء منهم ومن كان يعي الأشياء على حقيقتها وجوهرها، اقتنع بما سمع وعلى الفور عاد قسمٌ منهم إلى الجبهة، حتى إن الشائعات قالت بأن ياسرعرفات كان من بين العائدين، فعادت معه جماعات غفيرة من أتباع حركة فتح.

هكذا يُقال، ولكن احداً لا يعلم الحقيقة ولا حتى علي القاسمي المذهول والمشغول بحماية ظهر رامي البندري.

البندري الذي ما فتئ في هذه الاثناء يلاحق فلول الاسرائيليين الفارين نحو النهر وهم يحاولون العودة إلى مراكز قيادتهم، حيث راحيل تتعرى غير متسترة أمام جنودها، بعدما يأسوا من اغتصاب بثينة الصالح وأم علي القاسميّ وكنانة

العمانية وأخوات القادة المتخاذلين والذين اصطفوا على مراكز المؤن يعدون العدة لليَّالي الطويلة والحرب الضروس.

ظل رامي يتقدم حاملاً وردة الياسمين التي لا تزال بفمه، يلتقمها مثل جحيم الكرامة إذ يطبق على الاعداء، يصر عليها بأسنانه وكأنها الرصاص وهو البندقية، لم يتبادر لذهنه ساعةً أنها ستسقط منه، فلو سقطت لسقط كُشك أمه بأيديهم، ولكانوا الساعة على مشارف عمان يفعلون بها ما يفعله أمثالهم.

لم يشك لحظة واحدة في قوته على الاحتفاظ بها والنصر، ظل يتقدم حتى اقترب من يوشع، فلما وصل حافة النهرالشرقية وأصبح مواجهاً له لا يفصله عنه إلا ماء النهر.

أمتار بينهما، بضعة أمتار والروع زال.

قال له يوشع: ألا تاتي وتختصر سنوات طويلة ؟ سنوات سيشيب لها الولدان وسيتبوء لها رجال ما هم برجال.

يوشع كان هادئاً ورامي كان يصل إلى النهاية .

ألا تأتي فتكون هذه هي نهايتهم الموعوده ؟ فشلت نبوءتهم فهل تؤجل نبوءتك، كل شيء معك يخدمك: الأنبياء والنهر ووحدتكم، إن ضاعت الفرصة اليوم فلا تدري متى تعود.

الأمر أمرك يا رامي والقرار قرارك، أنت الآن ظل الله فهل تعبر؟

رامي البندري كان يقترب من الحلم ويوشع، تقدم ونزل الوحل، مضى يغطس رجليه بمياه النهر الجارية، تلكم المياه الحارقة المحرقة الملتهبة التي تغلي غلياناً ما غلته من قبل.

اقتنصوه فهوى على الأرض، وهوى معه حلم الوصول إلى القدس، قتلوه، وفي قتلهم له ترحيل لأماني امرأة في غزة تأمل لو يصل رامي إليها، نحروه فنحروا أفئدة من صلوا لأجل انتصار الحق، ذبحوه وفي ذبحهم له رسموا خرائط لبلادنا لا تشبه أرضنا ولا وجوهنا.

كانوا يعرفون أن وصوله للضفة الأخرى عند يوشع يعني نهايتهم، وما كانوا ليجعلوه يصل، وما كانوا ليقبلوا بنهاياتهم.

تلقفه المسيح، كانا باسمين ساكنين، وجهاهما كانا مشرقين متوردين، أحدهما انتصر والآخر صفى بعض حساباته.

وردة الياسمين كانت لا تزال بفم رامي البندري، فتقدم منه كبير الطيور الوردية وتناولها منه بعدما حياه كما لو أنه جندي من جنوده، ثم أوصلها ليوشع الذي احتضنها وغاب بين الجبال.

تُرى، هل كان الطائر الوردي يعرف أن هناك فرقاً ما بين نهاية رجل ونهاية معركة ؟

قال له المسيح وهو في لحظاته الأخيرة: أوصنا إن كان لك وصية، فقال: ابنوا جسراً جديداً بالقرب من جسر آدم على

ضفة النهر، واعبروا منه إلى القدس، فرد عليه أبو عبيده: سنفعل، بل سيفعلون.

قال له أبو عبيده وهو يمسح على وجهه: كنت أعرف أنكم ستنتصرون، فمنذ القدم زحفت مع جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد إلى دياركم، تجَمَّع أجدادك وانظموا إلى جيوش الرومان ضدنا، كان أغلبهم على دين المسيح مثلهم، وحلفاء لهم بقيادة رجل منكم أو من دمشق لست اذكر اسمه.

تخندقوا في مدينة "طبقة فحل" بين الجبال الشاهقة يذودون عن بلادهم، وكادوا يهزموننا لولا أنْ استخدمنا الحيلة والخديعة معهم ودبت الخيانة بين ظهورهم.

يا رامي، في تلك المعركة لم نكن نحارب جيش الرومان بل كنا نحارب جيش أجدادك الأشاوس، يا رامي، نحن لم ننتصر في تلك المعركة، الله وحده هو الذي انتصر وهزمكم، فقد كدتم يومها تهزمون جيش الله الحقيقي، كدتم توقفون عجلة التاريخ، كدتم تحصرون ديننا في الجزيرة العربية وتؤجلون نشره.

أيا ولدي، كانت قريش محطتنا لإقامة دولة ديننا في الجزيرة العربية، وكنتم محطتنا في نشره لكل بلاد الدنيا، لقد حارب أجدادك الله وجيشه حفاظاً على أرضهم، وعليه ما كنت أشك لحظة بانتصاركم على هؤلاء المزورين.

استشهد رامي البندري، فعمده المسيح وصلى عليه أبو عبيده، ثم عاد كلٌ منهما من حيث أتى، ومنذ ذلك اليوم وفي كل عام تنمو ورود الياسمين على ضفة النهر ولا من أحد يوصلها إلى الضفة الأخرى.

استشهد رامي البندري ومنذ ذلك اليوم وفي كل يوم من ذكرى تلك المعركة تغلي مياه نهر الاردن بنفس المدة التي قضاها رامي في النهر يحتضر تعظيماً له وتكريماً لبطولته، تغلي ولا من أحد يشعر بها ويراها إلا علي القاسمي والطائر الوردي والعقيد مشهور الجازي.

استشهد رامي البندري ومنذ ذلك اليوم وفي كل عام من ذكرى الكرامة، يهبط المسيح ويأتي أبو عبيده ليقفا حيث استشهد بطلهما ويُصبّران يوشع الذي لا يفارق المكان حالماً برامي آخر يوصل له وردة من غير وساطة الطيور.

توافد المقاتلون بالرجوع مع النصر، وجاءت قوات جديدة لتحل محل الذين حققوا النصر وقاتلوا في المعركة، كانت بثينة ترقب وجوههم، تتفحصهم، كانت تعترضهم وهم يرتمون بأحضان ذويهم تسألهم عن ابنها فلا يجيبها أحد عن شيء بخصوصه، فيُصبّرها أبو أحمد النيجيري ويطلب منها التريث حتى عودة جميع المحاربين.

الأسود النيجيري الذي ضلّ طريقه إلى الحج، فقصد

فلسطين ومن ثم لجأ إلى عمان يستقر فيها بعد حرب النكسة، يبيع المكسرات والفستق الحلبي في "سقف السيل" وسط المدينة، قَدِمِ إلى المكان ليشهد تاريخ الوطن وليموت مرتاحاً فيما بعد لأنه اختار الوطن الصحيح للإقامة فيه.

كان آخر الخارجين من موقع المعركة علي القاسمي، الضابط الذي يجر رجله المصابة من طعنة جنديٍّ اسرائيليٍّ في المعركة وهو يحاول حماية رامي من الخلف، آمن بأن دوره في المعركة ينحصر بحماية البطل، وآمن مثل يوشع بضرورة إيصال الياسمين إلى الضفة الأخرى.

التقت عيناه بعيني بثينة، كان مصاباً وكان ملطخاً بالدم، وكانت بثينة وبجانبها كنانة العمانية لا تفارقها، تنتظران عودة البطل بين اللحظة والأخرى.

ولكن البطل لن يعود يا بثينة، مضى إلى وجهة أخرى يا صانعته أنت.

عرف القاسمي بأنها أمه، فأشار لها بعينيه، يُومئ لها ويعلمها أن شمس ولدها لن تبزغ من جديد، ذاك أن ولدها أطفأ شمس عمره بيديه لتبقى شمس الكُشك مضيئة في سماء بلاده.

لم تُرِدِ أن تفهم إشارته فتقدم منها وقال لها: لقد أوصل

الوردة كما كُتِب عليه، ولن يعود إليك ثانية، ولن تريه إلا في المنام، فتجهزي لأكون ولدك منذ الآن.

ثم سقط وفقد وعيه، وفقدت كنانة مع سقوطه قلبها الذي صار رهينته وممتطاه، ولِتُولد مع هذا السقوط قصة حب بين عاشقة صوفية تنازع الحياة لتحيا حياة الفرح، وبين عاشق محارب جُبل على الدم والموت والتنكيس في يوم واحد.

****

لسوف تذكر بثينة الصالح فيما تذكر قصة ولدها الشهيد سنوات عديدة، ولسوف تتحدث عن بطولاته ودهائه، معلقة صورته في زيه العسكري وهو يقتل الجندي الاسرائيلي "عوزي إيلان" والمنشورة في صحيفة أمريكية لا تعرف نطق اسمها في مكان بارز من الكُشك، الكُشك الذي ستغير اسمه ليصبح "كُشك رامي البندري".

ولسوف تقول لكل المارة بأن الحرب التي انتصرنا فيها لم تكن حرب الجنرالات وأصحاب البدل الأنيقة، لا ولم تكن حرب الفدائيين وقيادات فتح، وإنما كانت حرب ولدها ورفاقه.

ولسوف تقرأ الصحف كل يومٍ علّها تجد شيئا يؤرخ لابنها وانتصاره، ولسوف تُفاجأ بأن ياسرعرفات وفضيل الأسدي قد سرقا ومعهما الكثير من الجنرالات وأتباع حركة فتح نصر ابنها.

سيخطب ياسر عرفات بكل التجمعات والحشود مُدَّعياً أنه كان سيد الموقف في المعركة، وسيدعي فضيل الأسدي بأن إشارة النصر وصلت مع قذيفته وأن دبابته هي التي أطلقت الرصاصة الأولى في المعركة.

الخواجات أصدق منكم، هذا ما قالته في سرها وجهرها، إعلامهم لا يكذب ولا يزور التاريخ والحقائق، أنتم فقط من يُزَوِّره ويُحَرِّفه ويهتك ستره أيضاً.

الخواجات وضعوا صورة ابنها ولم يضعوا صورهم، يكفيها هذا الشرف الرفيع الذي لم ينله أحد سوى فلذة كبدها، ومن يومها لم تحضر احتفالات الحادي والعشرين من آذار من كل عام، ولم تتقبل الأوسمة والنياشين التي وُزِّعت على ذوي الشهداء والجرحى والمشاركين، لا ولم تقبل المساعدات العينية والمالية، كانت تقول إن عوائد كُشكها تكفيها عن سؤال الآخرين، وطلبت منهم أن يعطوا تلك الأعطيات لمن هم أولى بها منها.

ستفضح ياسر عرفات في كل أنحاء صويلح حينما تعلم أنه ادعى البطولة ونسب النصر له ولحاشيته وأتباعه، وستتهمه وحركته بأنهم كانوا أول الهاربين الفارين تاركين خلفهم نساء مخيم الكرامة، لا يعرفون ولا يدرون ماذا سيفعل الاسرائيليون بهنَّ؟ وستقول للطفل المتسول حينما يسألها عن دور ابنها في

الحرب بأن ولدها لم يَفر ولم يجبُن ولم يتركها ويولي أدباره، وبأنه وقف مثل العُقاب على الجبال وخاض حربه المصيرية دفاعاً عن ملّولة أبيه.

سيصيبها الجنون وهي ترى الكابتن فضيل الأسدي يعتلي المنصات في كل عام وقد أصبح واحداً من أمراء الحرب يزهو بالنصر وكأنه قد صنعه بيديه وحيداً، يتجرأ على دماء الشهداء غير خجل منهم وهو يحكي عن بطولاته الوهمية متجاهلاً شهود الحرب الذين لم يذكروا أنه أطلق رصاصة واحدة من بندقيته، وإذا ما مر يوماً من أمام كُشكها استوقفته تسأله أنْ كيف نسيً أن الجنود رأوه من بداية المواجهة وقد سقط على الأرض وأمعاؤه تتدلى من بطنه مرمياً حتى نهاية المعركة ومجيء المسعفين.

ليس لنا بالنوايا يا فضيل، لم يكذبك أحد ولم يصدقك أحد ولكن الآحاد كلهم صفقوا لك.

أنت قلت ما قلت ونحن سمعنا، ولدي لم يتحدث لوسائل الاعلام ولم يكن يريد أن يصبح جنرالاً كبيراً مثلك، يختال مثل الطاووس مزهواً بالأوسمة والألقاب، جُلُّ ما أراده أن يوصل وردة الياسمين ليوشع.

يا ياسر عرفات ويا فضيل الأسدي، هل أخبرتماني إن حمل الطائر الوردي منكم وردة ؟ وإن صلى عليكما أبو عبيده وعمدكما المسيح ؟ هلا أخبرتماني إن تباركتما بذرات التراب

التي رماها ولدي بوجوه الجنود ليباركهم فصارت على جباههم كالطين ؟

أيها السيدان، ولدي لم يستشهد بأقوال الرفاق الأفاقين الكذّابين من بعض أعضاء حركة فتح ولا من شيخ وهميٍّ ادعى أنه أنقذه من الموت، ولم تدرجه تقارير المخابرات ضمن لوائح الأبطال وقوائمهم.

أيها السيدان، تقاسمتما نصر ولدي وجيشه وصرتما السيد الرئيس والباشا الجنرال، أفلا تخجلان ؟

أيها السيدان، سأغير اسم الكُشك ليصبح "كُشك الرئيس الجنرال رامي البندري"، أفلا تعتذران ؟

****

على مدرجات الفارابي في الجامعة الأردنية سيقف الدكتور هشام أبو النور يواجه طلبته محدِّقاً بعيني كنانة في صفوفهم، يحدثهم عن موضوع آخر غير مواضيعه التي ملّوها وخَبِروها، والتي لا يرون فيها سوى أحاديثٍ عن تاريخه هو لا عن تاريخ الوطن.

و سيبرر هذا المأخذ عليه بأنه يختصر التاريخ بمشاهداته التي لا يشوبها التزوير ولا التلفيق والأكاذيب التي يكتبها المنتصرون ويصيغونها بالطريقة التي يريدونها، تلك المشاهدات

التي وقف عليها من يوم وُلِدَ قبل بداية القرن العشرين حتى يومهم هذا.

ابن العقود الطويلة الذي يدعي بأنه وحده مَنْ يعرف الحقيقة كاملة ويحفظها عن ظهر قلب، حقيقة الوطن وحقيقة ما جرى ويجري، وما علم أن هذه الصبية قد تعلمت من بثينة وابنها وحبيبها ما لم تعلمه إياه دور الكتب والأبحاث والدراسات والسير والندوات والمحاضرات، فإن كان هو مشاهداً لما جرى أمام حبيبها، فإنها قد عاشت تلك المجريات بكل حيثياتها من دون تلقين أو إملاء، عاشتها على حقيقتها بكل أسرارها ودفائنها.

سيعتلي أبو النور المدرجات بخلاياه الميتة وبسنوات عمره الزائدة، يحدث الطلبة عن صناعة الوطنية، وستنصت له كنانة بكل حواسها، وسيلحظ اهتمامها بما يقول، ولن يزيح عينيه من تحت نظارته عنها وهو يحاضر الطلبة مطلقاً عنوان المحاضرة الغريب على اللوح المواجه لهم في وسط المدرج "صناعة الوطنية".

وسيقول لهم بعد أن يجرد صوته بأن الوطنية صناعة كأي صناعة أخرى، فهي تتطلب معطيات كثيرة وأدوات إنتاج محددة لإنجاحها، أهمها مدى قدرتها على التعبير عن نفسها وبنفسها، من خلال الإفصاح عن ذاتها أولاً، ثم في سلوك أتباعها ثانياً.

فقابله الطلبة بالضحك المستهجن من كلامه، وعلّق أحدهم بصوتٍ عالٍ قائلاً: هل هذه الصناعة صناعة أمريكية أم صينية.

فتجاهله وأكمل محاضرته يقول: أما ثالث ثوابتها والذي لا يقل أهمية عن سابقتيه، فيكون من خلال الترويج لذاتها وكينونتها وكأنها بضاعة كسائرالبضائع، مما يضعها ضمن معادلة الانسياب من المنتج (الوطن) إلى المستهلك (المواطن)، اعتماداً على مؤسس الرأسمالية العالمية "آدم سميث" حينما وضع نظريته المختصره في قوله "دعه يعمل دعه يمر"، إلا أنها في الوطنية تأخذ شكلاً آخر مع احتفاظها بمضمونها لتصبح: دعه يتموطن دعه يعيش.

ويكمن الفرق بين الوطنية وبين أي مادة سوقيه أخرى في تبادل الأدوار بين طرفي عملية الانتاج للمادة ذاتها، فإذا كان المستهلك الآن متلقياً لبضاعة الطرف الآخر، فإنه يبدل دوره حينما تواتيه الظروف ليصبح هو المنتج.

بمعنى، أن الوطن يصبح في مثل هذه الحالة هو المستهلك، تماماً كما هو الحال مع الرجالات الذين خدموا بلادهم وضحوا في سبيلها ليصبحوا هم المنتجين والوطن هو المستهلك.

إذ ليس بالضرورة أن يكون الإنسان على جاهزية عالية لأخذ هذا الدور، أو أن يخضع لشروط كبيرة معقدة وتعجيزية،

فكل ما هو مطلوب منه هنا أن يكون قادراً على تلبية احتياجات الطرف الآخر، وهذا يقودنا لأن نعتقد جازمين أن الذي يشغل دور المنتج هو الطرف الذي يملك القدرة المشاعرية الحسية الأقوى والجارفة في تلك الوحدة الزمنية المعنية.

فنحن لسنا وطنيين بالفطرة ولكننا نستجيب لنداء الوطن لو أحبَّنا هذا الوطن، لو عطف علينا، لو رآنا كما ينبغي له أن يرانا.

وإذا ما تعاملنا مع الموضوع من زاوية لبرالية بحتة، فإن الموضوع (أي الوطنية وما يلحقه من مشاعر وأحاسيس) يبدو وكأنه منضبط تلقائياً ضمن علاقة كلية شاملة وإن بدا عشوائياً، تماماً كتلك الفوضى الخلاقة التي نادى بها الفيزيائي "جيمس غليك" في نظريته عن اللامتوقع / الكايوس.

قد تبدو الفكرة غريبة ولكنها حقيقية، فخلجان "غليك" المتعرجة والمتماوجة، والتي قاتل ليثبت بأنها ليست فوضوية، وإنما هي منضبطة ضمن معادلات فيزيائية رياضية كونية صارمة، تشبه إلى حدٍ بعيدٍ مشاعرنا الجياشة التي نتوهم بأنها تلقائية، فهي تخضع في حقيقتها لأقسى نظريات الكيمياء القائمة على التفاعلات الغريبة والمنتجة لأشياء غريبة تماماً مثل الحب والوطنية.

هذا التفاعل الكيميائي مرده إلى الجاذبية التي يشعر بها

الطرف الآخر نحو معشوقه، نحو وطنه، إذ يفرز الجسد رائحته المنبثقة منه تجاه الطرف الآخر فيولد تلك الجاذبية (الارتياح تجاه الآخر وحتى تجاه الناس على وجه العموم) التي نتحدث عنها، ومن ثم وبعد هذا التفاعل تُولّد الجاذبية الحب والعشق.

وهذا ما يحدث تماماً مع الوطن، والذي يُصدِر بدوره وبتلقائية وعفوية منه مجموعة من الروائح المتشكلة منه، فتشكل بدورها موقفاً عند المواطن من حيث الانجذاب والنفور.

وليست هذه الروائح المطلوبة من الوطن كبيرة ومستعصية، فهي بحجم روائح الياسمين، روائح البحر، روائح حصاد القمح وقطف الزيتون واصطياد السمك.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كان التفاعل الكيمائي يعمد إلى تكسير روابط قائمة لإنتاج روابط جديدة، تكاد تكون مختلفة في عناصرها المشكلة عن المُركَب الجديد المتشكل، فهل هذا يعني أن التفاعل الكيميائي العشقي والمشاعري في الوطنية عَمِدَ إلى تكسير روابط سابقة كانت موجودة كالمشاعر التي نحملها للأهل والعشيرة والحزب؟ (أنا شخصياً لا أعرف بماذا أجيب فكل وجهات النظر عند هذا السؤال تبدو صحيحة بالمطلق وتبدو خاطئة بالمطلق أيضا).

تتصرف الوطنية وكأنها آلة ميكانيكية شأنها في هذا شأن الآلات الميكانيكية في المصانع، يتوجب علينا صيانتها بين الحين

والآخر، وعلينا أن نُبقي متيقظين للطاقة الاستيعابة لهذه الماكينة، لهذا التراب، لهذا الشعب الذي يقوم مقام الآلة، وكما تحتاج الآلة الميكانيكية لمزود طاقة فيها، فإن الوطنية تحتاج لتلك الطاقة أكثر من غيرها، طاقة تحركها وتبقيها على قدرتها في استمرارية التدفق والحركة، ولتبقها على ديمومتها وصلاحيتها.

والمواطن في مثل حالتنا هذه، يشبه عامل الآلة، الذي وعلى الرغم من كثرة الآلات حوله، إلا أنه يبقى على ارتباطه وجدانياً مع آلة واحدة، هي آلته التي يتوهم بأنه يملكها ولكنه لا يملكها، وهذا ما يحدث على صعيد المشاعر بالتحديد.

فعلى الرغم من تشابه المحبوب مع الآخرين، ووقوعنا في وهم اختلافه عن البقية المتبقية من الخلق والناس، فلا يزيد أو ينقص عنهم في شيء، إلا أننا نظل نعتقد مؤمنين بل وجازمين بأننا لا نصلح لأحد سواه، تماماً كما هو الحال مع العامل والآلة الذين صارت تربطهما علاقة من نوع ما وصار من المستحيل الفصل بينهما.

ووطنك هو آلتك التي لا تصلح لآلة سواها.

الحب والوطنية صنوان، كلاهما كالبطارية الصناعية التي يلزمها شاحن تُشحَن به وتحرك عجلته، فقد تتوهم أنك تتعامل مع عشرات الآلات، ولكنها في الحقيقة آلة واحدة انبثقت عنها بعض الميكانيكيات، والتي ترجع لها في منظومتها الحركية ككل.

الطلبة لم يفهموا المحاضرة، بعضهم كان شارد الذهن وبعضهم غرق في تدفق المعلومات فعزل ذهنه عن مطاردة معانيها، وبعضهم كان ينقل المعلومات على أمل أن يفهمها قبل مجيء الامتحانات النهائية، فينجح في الامتحان لو تعرض لسؤال فيها.

وحدها كنانة التي وقفت في وسط المدرج وصفقت بحرارة للمحاضر، فابتسم لها وقال ممازحاً: يبدو أن إشارات الحب في المحاضرة قد أصابت قلبك، ففرحت بها وصفقت لها على هذا النحو من الحرارة، فردت عليه قائلة: أمَا كان من الأجدى بك أن تلقي محاضرتك هذه في جامعات هارفرد وكامبريج والسربون، عَلّ الناس هناك يفهمونها فتجد من يقدرك ؟

صدمته الصبية بكلامها، فما كان منه إلا أن أغلق دفتر ملاحظاته ولبس نظارته حاملاً كتبه، ومضى يخرج من المحاضرة من غير أن يعلق على مداخلتها.

فلما لحقته تعتذر له عَمَّ بدر منها، حيث شعرت بكم الحرج الذي تسببت له به، لم يهتم لاعتذارها واكتفى بتجاهل الموقف بعد أن أعطاها تزكية منه لرئيس تحرير صحيفة "الصحراء" الأستاذ مصطفى الحسن تعمل فيها، فظلت تنظر إليه وهي تسأل نفسها إن كانت ستهدر سنوات عمرها في هذا الوطن كما هو حال هذا البرفسور.

كنانة العمانية تركت ابن الذوات لسياراته الفارهة وحياته الفارغة، أقسمت لو قامت حرب جديدة أن تشارك فيها، فما أجمل لذة النصر في الحروب، إنها لأجمل من لذة الشهادة على حدِّ فهمها، أقسمت أن لا يحول أحد بينها وبين إشهار سلاحها بوجه أي عدو يحاول الاقتراب من أسوار بلادها.

مضت إلى الحياة بروح جديدة، أشبه ما تكون بروح المنتصرين، ولكنه نصر فاضح على المستوى الشخصي، إذ كيف غرر بها شاب بتفاهة هذا الشاب الذي خدعها بحبه، وأوهمها برجولته التي اكتشفت أنها مجرد ذكورة عادية كذكورية البهائم، فبدت معركة الكرامة وكأنها لم تكن للنصر بقدر ما كانت للفضائح.

أرادت أن ترسم حباً آخر لرجل آخر لا يخلف موعده مع الوطن، لرجل يحب منظر تساقط الثلوج مثلها، يختلف معها حول الطفل المتسول ولكنه لايكرهه وإن كان لا يشفق عليه، كانت تقول لصاحباتها: من يخذل موعده مع الوطن سيخذل حبه مع المرأة، الوطن والمرأة سيان، إما أن تخلص لكليهما وإما أن تخون كليهما.

****

صاحبتها ورفيقة دربها في المدرسة الثانوية وَعَت وفهمت دربها الجديد في الحب نحو المعشوق الجديد، فسألتها: أتحبين

رجلاً لم يستطع أن يحمي مقاتلاً من الموت؟ فقالت لها:أحب رجلاً ساعد مقاتلاً على النصر.

فيما بعد لما سألها علي القاسمي من باب الاستفسار ليس إلا، عن الكيفية التي وقعت بها في مصيدة حب ابن الذوات، بررت فعلتها هذه التي صارت تخجل منها بأنها لا تقتنع بحب أبناء الفقراء، ظناً منها أن أبناء الذوات أقدر على الحب منهم، فاكتشفت لاحقاً أن لا شيء من هذا الكلام صحيح، وأن لكل طبقة مقياسها وطريقة فهمها للأشياء.

قالت له: العاشق الفقير يأتي في الزمن الخاطىء، يندفع كزلزال وظيفته بث التحطيم والخراب في كل الانحاء، تشويه السطوح فقط، ضرب الاشياء وبعثرتها بفوضوية مطلقة ، كتلاطم الأمواج أو حتى كفعل الحراثة الذي تمارسه الجِمال.

يتوهم العُشاق الفقراء بأنهم براكين تحمل الحمم والقذائف بوجه مثبطات الحب، ولكنهم في الحقيقة لا يحملون شيئاً أبدا، إنهم بحبهم الذي هو موقف موهوم يزأرون مثل الأسد المقيد خلف القضبان في أقفاص السيرك، أرأيتَ أسداً مقيداً يحسن فعل شيء ؟

لقد آمنت من خلال تجاربها أن ثمة علاقة طردية بين قسوة الوطن وتعملق الحب في قلوبنا، فالأثرياء ومن جيروا الوطن لمصالحهم يتسترون في الحب من أجل الذهاب إلى أقرب

شقة مفروشه، الوطن كله شقق مفروشة لهم، أما نحن الفقراء فكنا نحب لأننا نريد أن نقطف وردة، أن نسرق من عتمة الليل ابتسامة، أن نرسم حلماً ليس ينتمي للواقع في شيء، أن نختبئ في ساحة فسيحة وتحرسنا السماء لو اكتَشَفَنَا أحد.

نحن الفقراء نحب لأجل الحب ذاته لا لأجل الحياة في الحب.

على الدوام كان يرفض فكرتها من أن الحب ينتمي للطبقات ويحفل بها، فكانت تقول له بأن الحب موقف، وهذه النوعية من الناس اعتادت الفشل في كل مواقفها، ومن هنا كانت الطرق المسدودة تلاقيهم ويصطدمون بها شر اصطدام.

الفقراء يتوهمون الأشياء، يتوهمون المستقبل الأفضل، يتوهمون بأنهم أصحاب موقف ورسالة، وعلى الرغم من ادعاءاتهم هذه فإنهم يخسرون كل مواقفهم، ويُضيعون كل رسائلهم التي يزعمون.

الفقر والقلق والفراغ وبقية تلك العوامل المصاحبة لنا على مدار حياتنا، المحطمة لشعور السكينة فينا، هي التي تقودنا لصنع مشاعر وهمية نحن لا نعرف مصدرها؟ لا نعرف كيف جاءتنا وتلبستنا.

نعم، هوالحب تَلَبسٌ ومُحاصرةٌ واحتلالٌ طوعيٌ للأشياء،

فإن رفضنا التسليم بطوعية احتلاله، فهذا لأننا لا نريد الاعتراف بالحقيقة المرة بمرارة العلقم، والتي تقول بأن احتياجاتنا هي التي فرضت علينا من شدة قسوتها الهروب من واقع لسنا نعرف كيف ورطتنا الأقدار به، واقع أجبرنا عليه وما انفك يلازمنا من غير انعتاق ولا تحرر.

مع كل صرخة تطلقها أمعاء الفقراء مناديةً جيوبَ اللصوص في المدينة فلا يصغي لها أحد، ومع تكالب الأزمات واستحالة الحياة الكريمة، يذهب الفقراء بكل سذاجتهم للإختباء خلف مقولة: القناعة كنز لا يفنى، والأصل أن تكون مقولتهم المناسبة لهم: العجز كنز لا يفنى.

وأما حماقاتي مع ابن الذوات فكانت تخبرني بأن الحب كنزٌ لا يفنى، والحقيقة التي اكتشفتها أن لا كنوز في كل الحالات التي ذكرتها.

نحن الفقراء لسنا أقوياء ولكننا بُلداء، أصابتنا البلادةُ من تكالب الأشياء علينا، حتى المواقف الشُجاعة التي نتخذها ما هي إلا تعبير عن خداعنا لأنفسنا، أو لربما كانت على غرار من ذهبوا في مقولاتهم بأن الغريق لا يخشى البلل، مع أننا نعلم في باطننا أننا غرقنا في رمال الصحراء وطمرتنا الأتربة وما لنا ولطريق البحر من سبيل.

كانت تستطرد في لياليهم التي ستأتي لاحقاً وتقول له:

أتدري لِمّ نبحث عن الحب لو غاب عنّا ؟ لِمّ نلهث خلفه لو توارى عنّا ؟ لِمّ نتشبث بوهمه على الرغم من قناعاتنا بأنه سيقضي علينا لو فشلنا؟

لأننا في الحقيقة نبحث عن أنفسنا، فنحن لا نريد لقاء الحب على الحقيقة، وإنما نريد أن نلتقي بذواتنا وأنفسنا الضائعات التائهات في متاهات الدنيا المتلاطمة والمتضاربة، ولهذا لم يكن أغلب العشاق من الأثرياء.

الأثرياء ليسوا بحاجة للحب مثلنا، ليسوا يتوارون عن شيء مخيف في حياتهم مثلنا، ليسوا يبحثون عن تصريف لشؤون حياتهم اليومية مثلنا، ليسوا مثل الفقراء لديهم مجموعة كبيرة من القلاقل: قلق الرزق وقلق الدين وقلق الوطن، وهذه كلها تقودهم لخلق قلق آخر هو قلق الحب.

نحن المأزومون لا نكتفي بذلك القدر الهائل من القلق الممتد من لقمة عيشنا حتى مبررات وجودنا في هذا الوطن، فنلجأ لقلق آخر نسميه حباً وعشقاً ووجداناً، ومن هنا يصبح الحب عند مستويات الفقر كذبة، مجرد كذبة، مجرد خيمة نستظل بها من وقع الشمس الحارقة لوجوهنا الفاضحة لمعالمنا.

وبرغم كل قلقي أحبك يا علي، وبرغم كل أزماتي وانتكاساتي وهزائمي وتاريخ عائلتي الذي أتناساه: أحبك، وبرغم أنف هذه المدينة وكل كلامي الذي يخرج مني وأنا

موجوعة بك إذ تتجاهل حبي وعشقي وقلقي بك: أحبك، وبرغم كلامي الذي لا أدري إلى أي مدى هو صحيح: أحبك.

صارت تكتب في الصحيفة الجديدة وينبهر الأستاذ مصطفى الحسن منها ومن سعة اطلاعها وجرأتها، بقيت بعيدة عن الاحزاب والتنظيمات لأنها لم تشهد لهم أي دور في الحرب، قالت لو كانوا صادقين لعبر رامي النهر، لَحَمَوا صدره وعاد لأمه كما عاد البقية، لو مروا من جنب المعركة لما تشوهت رِجْلُ علي، ولما أصاب التلف بعض شرايينه وأوتاره.

أحبت الأدب والأغاني الكلاسيكية، لم تهتم بالورود ولم تُعِر الطيور والحيوانات الأليفة أي اهتمام، كانت تقول بأن الأولى بنا أن نهتم بالإنسان ونركز عليه بدل هذه الاهتمامات المستوردة من الخارج، والتي نبالغ فيها وكأننا وحوش تفتك بهذه الطيور وتلك الحيوانات.

أرادت أن تكون ناقدة، فكتبت الكثير من المقالات النقدية والتحليلية والأسلوبية في الأدب، ركزت كثيراً على تيسير السبول، الأديب الذي انتحر احتجاجاً على هزائم أمتها المتلاحقة .

كانت تشتري روايته "أنت منذ اليوم"، مرة على حسابها ومرات على حساب بثينة الصالح، وتهديها لكل من تتعرف عليهم في حياتها، فكانت تلاقي لفتتها تلك رضى في نفوس من

يأخذونها منها، باستثناء علي القاسمي الذي رفض استلامها وقال لها: أريد أن أُشفى من أمراضي الناخرة بعظامي وقلبي، فلا تزيديها عليَّ بكتابك هذا.

كتبت المقالات النقدية بلغة تحليلية عميقة، ومع التركيز والمثابرة والاجتهاد والمتابعة، صارت تحذو حذو النقاد الكبار، وتشق لنفسها طريقاً تبدو واضحة المعالم وإن اعترتها الشائبات، بل إنها أصبحت تقف على أعمال كبار الأدباء والشعراء، مُغِيرَةً على إنتاجاتهم الأدبية، مطاردة مؤلفاتهم: شكلاً ومضموناً.

كان كل من يقرأ لها يشعر وكأنه أمام امرأة بعمر بثينة الصالح، لها من الخبرة والدراية ما يكفي لتقول كلمتها وتحفرها هناك عميقاً في الجذور.

لقد طالبت بتغيير الصور الكتابية لبعض أشكال الحروف في اللغة العربية، بحيث تخلو جميعها من النقاط، كما هو الحال في حروفٍ مثل:

(ش) (ن)(ت)(ف)....، فيُصار إلى استبدال أشكال هذه الحروف بأشكال هندسية متداولة لدينا، فالشين مثلاً نستبدلها بشكل المثلث والقاف بشكل المكعب والنون بشكل الدائرة، وهكذا حتى نتخلص من كل النقاط التي ترافق شكل الحروف حينما نرسمها.

ولم تمانع بأي شكل آخر غير الأشكال الهندسية مهما كان تصميمه، فالمهم عندها هو التخلص من النقاط.

ووعدت القُراء أن تقدم لهم تفصيلاً دقيقاً لنظريتها هذه في مؤلفاتها التي ستصدرها لاحقاً.

لكن مؤلفاتها تلك التي وعدت بها لن تصدر، لن ترى النور ولن تتنفس الحياة، بل لربما تُنسى أفكارها من عقلها هي قبل أن تُنسى من عقول من قرأوا لها، وتطوى كما تطوى الصحائف من ذاكرتهم.

****

تغير شكل "صويلح" بعد الحرب.

لا الأرض ذات الأرض ولا السماء تلك السماء التي كانتها، حتى السكان تغيروا، زحف إليها البدو والفلاحون وأبناء المخيمات ظناً منهم أنهم سيلاقون فيها حياة أفضل مما لاقوها قديماً في مناطقهم الأصلية.

عماراتها وبناياتها لم تشهق للأعلى كثيراً، ظلت متقزمة هزيلة ضعيفة البنية كامرأة يمنعها المرض من الوقوف مستندة الطول متزينة الخلقة، عاهات ابنائها وأسقامهم جعلتها تبدو وكأنها مصابة بألف مرض ومرض.

اكتفت بأربعة أو خمسة أدوار على أحسن حال، منعوها

من معانقة السماء ودغدغت السحب، فلم يريدوها عالية مرتفعة ترى الحياة من فوق لتشاهد جرائمهم بأم عينها، فقد أرادوها أن تكون في الظل بعيدة عن النور والسماء، يعجبهم أن يبقوها فأراً صغيراً قريباً من الجحور.

حتى حدود أراضيها تقلصت فوجدت نفسها ملتصقة بضواحي جديدة صُنِعت من العدم والفراغ.

من قال إن الأعداء هم من يسرقون الأرض فقط ؟

الكثيرون من سكان صويلح عَقُّوها شرَّ العقوق، وكأنهم إذ يرفضون إطارها الخارجي يسعون لسبغ ثياب خاصة برؤيتهم لها، لا بما يتناسب معها هي نفسها، فأرادوها بثوب غير ثوبها وبنكهة وشكل غير نكهتها وشكلها.

تبدو صويلح في شكلها وعمقها مختلفة عن أي مدينة أخرى من مدن العالم، ففي الوقت الذي تسعى فيه المدن لتتسيد على غيرها من المدن ، كانت مدينتنا تُوغِل في التسيُّد علينا، مستخدمة أمراء الحرب الذين لم يحاربوا وأباطرة البنوك الذين لم يستثمروا فيها ديناراً واحدا.

صويلح مدينة لا يراها أهلها، لا يبصرون حجارتها، يحملون كل مدن الدنيا ولا يحملونها، يحملون موسكو كشيوعيين ونيويورك كلبراليين، يريدها الفلسطينيون القدس الضائعة،

ويحلم بها السلفيون كمكة قبل ألف عام، يلاعبها الإخوان لتصبح عاصمة الخلافة والناصريون يريدونها قاهرة عبد الناصر، ولكَم أرادها البعثيون أن تكون شيئاً كدمشق وبغداد ولكنها أبداً لم تكن، في شوارعها تظهر كل المدن ولا يظهر شيء من معالمها إلا الكُشك.

صويلح مدينة ليست جميلة، ليست كفتاة يستحسنها عاشقها وحبيبها فتصبح جميلة لمجرد إيمانه بجمالها، فالمدن والأوطان مثل النساء لا تكون جميلة إلا إذا رآها عاشقوها جميلة، ويا بؤس صويلح وحظها العاثر بأهلها الذين ما استحلوها يوماً.

عمد الأثرياء مبكراً بعد الحرب على هجرانها، تاركينها للقادمين الجدد، بلحظة واحدة قرروا تركها ورميها كقميص مومس مهترىء، فاتجهوا نحو أحياء جديدة بنوها وصاغوها وكأنها نمط من أنماط مدن العالم الذي لا نعرفه إلا من خلال الصور، وبالتالي فإن كنانة لم تعد تتصادف مع هذا العاشق السطحي الذي ضيعت من عمرها معه وإلى جانبه بضعة من أحلى أيام عمرها.

قالت له في آخر مرة اعترض طريقها فيها: ماعدتُ أظن أنَّ لي بك حاجة بعد اليوم، بريق الرجال خطفني منك، فيا حبذا لو توفر وقتك المهدور في ملاحقتي، وتستثمره بعيداً عني، اذهب وتمتع بعيشتك الصاخبة.

عليك الإكثار من شُرب أقداح الوسكي التي تحب وتدمن، ومراقصة بنات الليل في الملاهي التي ترتادها، وبعد ذلك تزوج من امرأة على شاكلتك وحدثها عن الاستقامة وعفة الزوجة الصالحة.

علي القاسمي تبدل هو الآخر كثيراً، إذ شكلت له الحرب منعطفاً حاداً في حياته، تمنى لو أنه لاقى حتفه مع ابن بثينة، رآى أنه صار في عداد الأموات وأنه أصبح مجرد شبح، يعيش بزمان ليس زمانه، اعتبر نفسه ميتاً منذ رأى رامي يموت في النهر، وتعامل مع أيامه اللاحقة وكأنها أيامٌ زائدة عن عمره، ليس له الحق بعيشها أو التلذذ فيها، هذا إن كان فيها ما يوجب التلذذ والسعادة.

سُرِقت منه ابتسامته وتفاؤله الذي عرف بهما قبل الحرب عند أهله ورفاقه، لم يعد يدري ماذا يريد وماذا لا يريد، ماذا يفعل وماذا لا يفعل.

إصابته جعلت طلب التسريح الذي تقدم به للجيش يتم سريعاً وعلى عُجالة لم يكن يتوقعها، لم يزر منطقة الكرامة مرة أخرى، ولم يعد لرؤيتها بعد الذي شهده فيها، صار المكان يرعبه لمجرد التفكير بزيارته بعدما فضحت الحرب كُلاً من الحكومة وبقية الأحزاب الداخلية والخارجية.

ومن يومها وهو فريسة للأحلام المزعجة.

كل أبناء المدينة تؤرقهم الأحلام وتخيفهم، تصرعهم وتقض مضاجعهم، بعدما غدر الوطن بهم وبقلوبهم.

مساكين نحن في هذا الوطن، مساكين حدَّ الشفقة، فحتى لحظات الفرح بالنصر لا نعرف كيف نعيشها، لا نقوى على تصديقها، نتساءل مندهشين مستنكرين إن كانت نصراً حقيقياً بالفعل، إذ دائماً ما يبزغ شيء منها، يجعل الفرح منقوصاً، يجعل اكتماله أمراً مستحيلاً.

القاسمي الذي ضاع ولن يعود من ضياعه، كان يظن أن قرارالتسريح الذي اتخذه، سيخفف عليه وطأة القهر الذي عاناه، فقد ظل يرى نتيجة المعركة بغياب رامي البندري ومشهور الجازي نتيجة مرعبة، ظل يتخيلها من دونهما فيتخيل معها الأعلام الاسرائيلية محلقة في سماء صويلح.

ما علم المسكين أن قراره هذا سيقوده ليسلك طريقاً آخر، لا يقل في دمويته عن الحرب التي خاضها، وما علم أن الطريق الآخر سيكون مجرد نزهة مقارنة بالفاجعة التي سيشهدها فيما بعد.

الألم درجات والإيلام أنواع، وبعض مسالك الهروب التي نتخذها، ما هي إلا إحدى بوابات جهنم التي نتورط بدخولها من دون أن نعلم.

ما علم المسكين أن حالة القلق والهيجان وهذا الجحيم الذي يحاصره، سيكون أكثر رحمة عليه وعلى قلبه الرقيق مما سيرى لاحقا، وسيصدق عليه قول شاعر أحمق قال يوماً ما: "رب امرءٍ حتفه فيما تمناه".

اعتزل الناس جميعاً بعدما وجد ضالته المؤقتة في عزلته، في الذهاب بنفسه بعيداً عَن هيجان المدينة وتقاطع المساحات التي يلتقي ويفترق الناس فيها وعندها، لا يفعل شيئاً سوى انتظار مقالة جديدة لهذه الصبية التي شاهدها مع بثينة، احتفظ بكل مقالاتها النقدية والسياسية والاجتماعية، كان يقول كلما قرأ شيئاً لها: لم تُهزَم هذه الفتاة بعد.

رغم استسلام والده لرغبته في التسريح إلا أنه كان يصر عليه في الخروج من البيت لتبديل أجوائه، لعلَّ وعسى أن يتبدل حاله ويرجع ابنه الذي يعرفه، فكان يصل كُشك بثينة ويرجع حتى يهرب من ضغطه، فالكُشك ملاذ التائهين المسلوبة فرحتهم.

أخبر بثينة أنه من يوم حرب الكرامة كفَّ عن التحدث بكل اللغات التي كان يتقنها ويعرفها، حتى مع رفاقه الذين درس معهم في لندن على حساب الدولة، قال لها إنه لا يعرف رصيد عائلته من القبور في هذا الوطن، ولكن ما فعله في يوم الكرامة إلى جانب رامي جعله يشعر بالعيب لو تحدث بلغة لا يفهمها رامي.

قال لها: نحن أبناء الكرامة ليس لنا إلا لغة واحدة هي لغة الكرامة ذاتها، لغة مفعمة بالمفردات الخاصة بكل الذين قالوا كلمتهم ثم صمتوا إلى الأبد.

مع الوقت والأيام صارت بثينة تألفه وتحسب حسابه في وجبة الغداء التي تذهب لتعدها حالما ترجع كنانة لعندها، أما كنانة فقد صارت تجن لو مرَّ يوم من دون أن يأتي، صاروا ثلاثتهم مع الوقت أسرة واحدة، إلى أن انتقل علي في نهاية المطاف للعيش في بيت بثينة، شعور الشفقة لازمهم تجاه بعضهم البعض، كلٌّ واحد منهم له فاجعته التي سببتها الحرب.

علي القاسمي كان بريعان شبابه ولم يكن قد دخل العقد الثالث من عمره بعد، غير أنه قتل هذا الريعان بالبؤس الظاهر على وجهه، ورأى في بثينة وكُشكها قارب النجاة الذي سيجدف به نحو الحياة مرة أخرى.

راهن على الكُشك في العودة إلى الحياة، وبثينة راهنت على كنانة في إحيائه من جديد، أما كنانة فقد راهنت على الأيام التي رأتها كفيلة بقلوب العاشقين، تأتي محملة بأنوف من نحبهم إن صدقناهم الحب.

ويلك يا جميل الوجه، أوَمَا علمت أن الأموات لا يرجعون للحياة أبداً، وما أنت وهذه المرأة إلا في عداد المنتهيين، وما أنتما في هذه الحياة إلا لأن عزرائيل غير متفرغ لكما الآن،

يشغله عنكما التقاط أرواح أبناء الجماعات في هذا العالم الفسيح، أوَمَا علمت يا بهيَّ الطلة أنت بأن هذه المرأة ستقضي على ما تبقى منك من رمقٍ صارخٍ يناديك للحياة.

كيف تُريد أن تحيا والتضاريس الفاصلة بين الأشياء غير واضحة لديك ؟ الحب والإعجاب مثلاً، الهجر والقطيعة، أشياء كثيرة ما عدت تقدر على تعريفها أو اتخاذ موقف منها، صرت تائهاً والأشياء تداخلت بمخيلتك فيما بينها، وأصبحت غير قادرعلى فصل كل هذا الكم من الألغاز والحجج.

كم هي فوضوية خيوطك يا هذا العالم.

والده لم يعترض على هذا الانتقال الغريب لِمَا رآه من تحسُنٍ واضحٍ في حالة ابنه، إذ تلمس جمر الحياة يستعد للإشتعال من تحت حطام هذا المحارب المقهور، أصابته الدهشة والانبهار من تعلق ولده بالكُشك وصاحبته، وانبهر أكثر من مفعول الكُشك في مساعدته على الشفاء والتعافي.

تعامل مع الكُشك على أنه مستشفى أو مصحة نفسية يقضي فيها ولده فترة علاجه، فوقف بوجه الأمانة العامة للمدينة حينما قررت هدمه، واستطاع أن يأتي بقرار تجميد الهدم من الديوان الملكي.

حدَّث أمه يشد من عزيمة قلبها المفروط على ما أصاب

علي، يواسيها ويواسي نفسه قائلاً: نتركه حتى يستعيد عافيته من مصابه هذا الذي ألَمَّ به، ثم نلحقه بإحدى وظائف الدولة العليا، لم نعلمه خمس لغات ولم نذهب به إلى عشر دول عالمية، ونعلمه كل الفنون والمهارات التي علمناه إياها ليهدرها في هذا الكُشك.

عرض عليه أن يذهب به إلى أي بلد يريد، أن يلحقه بكافة الأماكن الترفيهية هنا في عمان وغير عمان، فكانت تُقابل جميع عروضه بالرفض دائماً.

قال لوالده: أرأيت هذه الصورة التي تعلقها بثينة في الكُشك لابنها وهو يقتل ذلك الجندي الإسرائيلي ؟ إنه ذاته الجندي الذي طعنني برجلي، كان يترصد برامي لقتله فانقضضت عليه، وإذ ظفر بي بعد عراك دار بيني وبينه تنبه لنا رامي وعاد لينحره على هذا الشكل الذي تراه في الصورة.

****

لا شيء يبقى كما هو، لا شيء تستطيع المراهنة عليه في هذه البلاد إلا التراب، حتى السنديان سيأتيه يوم ويقطعونه من جذوره.

ألم ترَّ كيف كبرت بثينة سريعاً، قفز بها العمر كثيرا، هجم المشيب على رأسها وزارتها تجاعيد الوجه والرقبة، بهت لونها وصار أقرب للصفرة منه إلى أي لون آخر، طوال الوقت ظلت

عيونها مُحمَرَّة كما الجمر، فعرف كل من كان يعرفها أن هذا الاحمرار مرده لساعات البكاء الطويلة التي تقضيها ناحبة على ابنها الشهيد.

صارت جلستها على الكرسي الخشبي أمام الكُشك جزءاً من معالم صويلح، تمارس هذه العادة وقد وضعت رزماً كثيرة من الصحف والمجلات الأجنبية، أحضرتها لها كنانة من أماكن مختلفة من هذه المدينة، تبحث فيها عن صورة جديدة لابنها الرئيس الجنرال رامي، وإذا جاءها زبون ولم يكن القاسمي وكنانة عندها تذهب لتلبي له ما يريد ثم تعود إلى الحالة التي كانت عليها.

الكل يبتاع من عند بثينة، الناس يبتاعون الأعشاب، علي يبتاع وطناً يسكنه وكنانة تبتاع رجلاً تحبه، كلهم يجدون عندها ضالتهم المنشودة إلا هي نفسها، فلم تجد صورة جديدة لابنها تعلقها في الكُشك كما فعلت مع الصورة السابقة، ولم تعد تجد أحداً يذكر فضل ابنها في تلك الحرب التي أخذت عمره.

صارت بدون مطالب، وما أسوأ أن يعيش المرء دون مطالب ولا أهداف.

قاسمها القاسمي جلستها المعتادة على الرصيف أمام الكُشك وعلى طرف الطريق، يضع كرسياً بجانب كرسيها ويبدأ بتصفح الصحف معها، وبحكم اتقانه ومعرفته للكثير من اللغات

الأجنبية كان يترجم لها كل ما هو مكتوب عن الكرامة والرجال الذين شاركوا فيها، وقلما كان يجد شيئا مكتوباً عنهم، فالعالم نسيهم سريعاً وعاد إلى التركيز على الموضات وأخبار المشاهير والحرب الباردة بين المعسكرين: الشرقي والغربي.

بثينة المفجوعة بولدها ظلت تعتقد متوهمة أنّ العالم سيبقى وفياً لذكرى بطلها، وما علمت هذه المرأة المنسية وقومها أن لا أحد يعرفه أو يتحدث عنه، ظلت تتمسك بفكرتها والأمل يحدوها من أن هكذا معركة لن يمر الخواجات عليها مرور الكرام.

فالأحرى بهم وهم يرصدون كل شيء عن منطقتنا وأحداثنا وحتى طريقة طعامنا وشرابنا وركوبنا وأصغر صغائر أمورنا، أن يقفوا على حيثيات حربها من ألفها إلى يائها، وخصوصاً أن هذه هي أول مرة يستطيع جيش في العالم أن يهزم جيش اسرائيل.

طلبت من علي أن يساعدها في البحث عن شيء مكتوب بين ركام الصحف والمجلات عن ولدها وحربه، انصاع لأمرها مباشرة كما لو أنها العقيد مشهور الجازي يوم أمره أن يعتلي دبابة اسرائيلية يوم الكرامة ويلقي بداخلها قنبلة فيقضي على كل طاقمها من دون نقاش أو تردد، فَجُلّ ما كان يريده هذا الشاب أن يبقى قريباً منها، أن يتشابك معها في همها وبحثها.

آمن أنه لن يجد شيئاً مهماً يُطفئ ظمأها، ولكنه فعل ما فعل ونزل عند رغبتها ظناً منه أنه يخدمها ويزرع السعادة بقلبها المصروع على فقيدها، فما أشد أن تفقد المرأة ابنها الوحيد، إنه ليعادل فقدان وطن وغدر ألف حبيب.

تناول الصحف يترجمها ويقرؤها من العناوين الرئيسة حتى الإعلانات التجارية، فتفاجأ من حجم التغطية الإعلامية الكبيره للحرب، وخصوصاً بعد الأيام الأولى من إنقضاء المعركة.

ترجم لها ما كان مكتوباً بالحرف، بالفكرة، بالمعنى، فكانت تنصت له بكل جوارحها، فتبعث من هيئتها تلك الشفقة في قلب كنانة عليها، كانت المسكينة تُحمِّل مسؤولية موت ابن بطنها - كما كان يحلو لها تسميته - للفلسطينيين والحكومة وكل المعنيين بمواجهة اسرائيل.

كانت تقول: لو انتصرنا في النكبة وستة وخمسين والنكسة لَمَا كان على ولدها أن يخوض تلك الحرب، ولا أن يذهب من غير أن يرجع، ولَمَا كانت اسرائيل بقادرة على شن تلك الحرب.

كانت تضحك أيُما ضحكٍ حينما ترى المصريين يحتفلون بنصر ستة وخمسين وتقول للطفل المتسول: لقد كان من نتيجة تلك المعركة أنْ صار لاسرائيل منفذ بحري على البحر الأحمر، فهلا يوجد شخص في هذا الكون يعلمني ما هي مقاييس النصر

والهزيمة عند العرب ؟

أكثر ما كان ينغص عليها مع ترجمات القاسمي، هو مجيء زبون يريد أن يبتاع شيئاً منها، فإذا لم تكن كنانة موجودة أشارت له بأن طلبه غير متوفر عندها، فيتركها ويذهب للبحث عنه في الدكاكين والمتاجر الأخرى، وتبقى هي مع مترجمها، تستمع له وتطلب منه أن يعيد لها آخرمقطع ترجمه، فيفعل ما تطلبه من دون إبطاء.

كان كلما ذكر لها أن العالم يُشيد بدور أبطالنا في الحرب وبقتالهم البطولي الشرس، تقاطعه متسائلة بكل فضول الدنيا وهي تكاد تجلسه على رجليها من شدة اقترابها والتصاقها به: هل يقولون عنهم نشامى ؟

فيرد عليها مبتسماً من سؤالها، نافياً فكرتها، مبرراً نفيه هذا بأن هذه الكلمة من اللهجة العامية الدارجة بين السكان، ومن الصعب عليهم معرفتها، فتقول له رافضة كلامه بكل براءة الدنيا وبساطة الأمهات الثكالى، تقول وقد بدا عليها الانفعال: مُحال أنهم لا يعرفونها، هم يعرفون كل شيء عنّا، وأراهنك بأنهم يعرفون أنّي وإياك نجلس هنا في هذه الساعة يا ابن محطة المهاجرين أنت، ثم تنظر إليه بعيون الريبة والشك وتسأله: هل أنت متأكد من أنك تعرف الترجمة ؟

فأطلق ضحكة ما ضحكها من قبل اشتراكه في الحرب،

وضحكت معه وهو يُقبِّل يديها، فحضنته وقبلت جبينه، فكاد قلب كنانة يتوقف عن الخفقان من شدة استحسانها لقهقهته وضحكته التي ما رأتها من قبل.

همست بأذن بثينة تقول لها: ضحكة أخرى كهذه منه وأضمن لك أن مقبرة صويلح ستشهدني ضيفة عليها.

فغمزتها بثينة وهي تبتسم لها وتحضنها هي الأخرى.

****

كنانة تواصل حضورها متعرضة لبعض المضايقات المهنية والأخلاقية من مرؤسيها هنا وهناك، فالفتاة على قدر عالٍ من الجمال، والرجال في بلاد العرب يجثون على ركبتيهم أمام هذا النوع من الجمال.

إلا أنها كانت تتجاوز هذه العقبات والمعاكسات مدعومة من الأستاذ مصطفى الحسن، الذي آمن بها وبقدراتها فساندها وعاضدها في مسيرتها تقديراً لها ولصديقه البرفسور أبي النور الذي زكّاها عنده.

رويداً رويداً خلعت ثوب الاستحياء وارتدت عمامة الجرأة مع علي، فصارت تتودد له على الملأ ومن دون تردد، فنصحتها صاحبتها بأن تلتزم بالرزانة وأن لا تندلق عليه على هذا النحو، فرجال بلادنا الحمقى - بحسب خبرتها - يحبون من

يلهثونَ خلفهنَّ لا من يلهثنَ خلفهم.

فقالت لها: إنه قلبي الذي ينساق له ويجُرُّني من أنفي نحوه، فلا أستطيع رد جوارحي عنه.

وصلت نفحات حبها وعشقها لحبيبها رطبة عذبة كالنسائم القادمة من بحيرة طبريا إذ تهُب على سهول حوران، أحسَّ بها وبحبها، داعبه شعورالهوى تجاهها، حاول أن يخدع نفسه بأنه لا يحبها وما هذا الشعورالذي بات يحمله لها ويشعر به تجاهها إلا مجرد إعجاب وتفاعل مع عيونها التي لا تنفك تراقبه وتترصد به، كل ما كان يريده الكُشك وبثينة، وكان لا يرى منها سوى أنها جزء من هذا الكُشك ليس إلا.

أنت الرجل الذي أريد ولن تفلت مني أبداً، وسأمهلك حتى تستيقظ قليلاً من الحالة التي أنت فيها وتلتفت إليَّ، ثم يكون لنا حديث وشأن آخر غير هذا التهرب الذي تتحصن خلفه وتتقنه لتصدّ سهام حبي عن عينيك.

تجاهُله لها وغليانُها من هذا التجاهل غير المقصود كان يجعل من بثينة تبتسم وتطمئنها قائلة: لا عليك، فهذا الرجل سيأخذك لفراش الزوجية يوماً ما، يحيطك بالشراشف ذات الألوان التي تحبين، وينجب منك طفلاً بأنف جميل كما هو أنفك فلا تتعجلي الأشياء وكوني صبورة، ألم أخبرك أنك لن تكوني طاهية ماهرة إلا إذا تعلمت الطهي على نار هادئة.

غير أن المرأة حينما تصر على الإيقاع بقلب رجل خالٍ من سواها، فإنَّ لا أحد في هذا الكون يستطيع أن يُفشِل مخططها، والحقيقة أن المسكينة تعبت معه أيّما تعب وهي تحاول استدراجه لقلبها.

فتحايلت عليه وهي تحاول أن تُفهمه أن الحياة تحتاج منّا لبعض التفاؤل وإن قست في بعض مفاصلها ومحطاتها علينا، تحتاج منّا نسيان الماضي حتى نستأنفها بالحيوية التي تستحقها.

مارست عليه ضغوطاً لا تُعد ولا تُحصى، فتشبث وتمترس طويلاً خلف رؤيته باستحالة الحب والحياة في صويلح، متجاهلاً دقات قلبه في أوقات متفاوتة، فظن أنها تنبض خطأً من الرجل الخطأ في الزمن الخطأ تجاه المرأة الصح.

بثينة رأت فَرِحةً باستحالة صمود قلاعه أمام ضربات العشق ومنادة الهوى لعينيه، ولم تنتظر طويلاً حتى شهدت سقوط هذا العاشق المحارب الحذر بيد هذه الفتاة التي لا تكل ولا تمل عن ملاحقته، قالت لنفسها: هي الأمور على هذا النحو تسير، فالمرأة الصادقة بحبها حتماً ستنتصر وتُركِع حبيبها عند أطراف قلبها.

كانت ليلة ثلجية تلك الليلة، إذ وجد نفسه يصطحبها لطبيب في منطقة "الشميساني" إثر بعض الأوجاع والآلام التي ألمت بها في مفاصلها، من جراء وقوفها لساعات طويلة تحت

الثلج، كطفلة تلهو وتلعب بكراته تبحث عن الحياة والفرح والإنبساط فيه.

قال لها في الطريق: ماذا تحبين من الثلج ؟ فقالت: برده وأجواء سقوطه حينما يغطي التراب بلون يوافق لون قلبي.

فقال لها: أحب منه ذوبانه إذ يعري الأرض فيعيد لنا رؤية القبور، وأكره منه إعطاءه المدينة لوناً لا تستحقه، الثلج لا يقوى على إعادة الرجال الغائبين، وليس يستطيع تطهير من هربوا يوم الكرامة.

أضجرها حديثه المتكرر عن الحرب وويلاتها، فقالت له: لِمَ لا تنسَ ما حلَّ بك وتقذف بذاكرتك خلفك، لِمَّ لا تجيئني لأصنع لك من أهداب عيوني قطوفاً من العنب، فقال لها: لَمَّا صنع الانسان الأرشيف والوثائق، أراد البرهنة على أن الإنسان لا يساوي شيئاً من دون ذاكرة، النسيان شيء قبيح، مرض خطير ليس لنا منه إلا ضياع معالمنا، فما نحن إلا أبناء حاضرنا وأحفاد ذاكرتنا، وما النسيان إلا آداة شريرة لا تقل بشرِّها عن شر الفقر.

جُلُّ ما يقدمه لنا النسيان رصاصة تقتل حادثة أنضجتنا من دون أن ندري.

نحن لا ننسى إلا إذا أردنا أن ننسى، فقالت له مبتسمة مشاكسة: هل يعني هذا أنك لا تحب نسياني ؟

كانت تشتاق له من قبل أن يغادرها، من قبل أن يتركها للمدينة بحماية بثينة أو الأستاذ مصطفى الحسن، فلطالما كان الشوق سيفاً مسلطاً على رقاب العاشقين، مما يجعلهم تحت وطأة أشكال الإضطرابات النفسية دائماً، كانت تحب الجلوس بجانبه على حافة الطريق أمام الكُشك ما بين المغرب والعشاء، يتبادلان الأحاديث وقليلاً من النكات التي قلما ضحك منها.

كانت تقول له: أطلق لِنفسكَ الفرح، فيخبرها بأنه يحس الخطر من كل الاتجاهات ممَّا لا يعطيه مجالاً للفرح، صغيرة مدننا على الفرح يا كنانة، وفيها يخاصمني السرور دوما.

فقالت له: الفرح لعبة جميلة، فحاول أن تخدع نفسك بإتقانها، تحايل على تلكم اللعبة بالإبتسامة فهي أُولى مراحلها، فإذا ما دانت لك فألجُمها كما تلجم الخيل، دَرِب نفسك على الإبتسامة ثم تفحص الشيء المشرق في أي شيء تقابله لتصفو السماء بعينيك.

في محاولاتها المتكررة غير اليائسة لإنتشاله من جحيمه وزرع الأمل بقلبه، قالت له: الحياة تُعطي فرصاً كثيرة للغارقين في بؤسها، الآملين في النجاة منها، لكنهم لا يحسنون اقتناصها لأنهم لا يريدون تغييرأهدافهم ولا منحى اتجاههم.

فقال لها من من غير أن يفكر ملياً بما قالته، وكأنه يُعدُّ اعتراضه سلفاً على كلامها من قبل أن تقوله: لا، فليس

الأمرعلى هذا النحو الذي ذكرت، ذاك أنّا نتجاهل الفرص التي تُعطينا إياها الحياة لأننا ما عُدنا نرغب في تلك الفرص، فكل شيء لا يأتي في أوانه ليس جميلاً.

فمضت إلى الكُشك تبيع أحد الزبائن عشبة تبييض البشرة وهي تقول: أيُّ جحيم يعيش بقلب هذا الرجل.

بعض الحالات المرضية لا ينفع معها التطبيب، لا تنفع معها المسكنات ولا أدوية النسيان، إنها بحاجة لشيء من تلك القطيعة الإبستمولوجية التي كان ينادي بها ميشيل فوكو، قطيعة تحمل قطيعة فوكو، بشكلها ومضمونها، ولكنها لا تحمل حقلها.

قالت له لما فرغت من الزبون: البتر مع الماضي هو ما ينقصنا لنرى المستقبل على نحو يليق بآمالنا، فضحك يخفي خوفه وهو ينتقل ليضع رأسه على رِجْلِ بثينة، حيث كان يقوم بهذه الحركة كلما داهمه الخوف وتلبسه شبح الرعب والتوهان من شيء حوله لا يدري مصدره، وقال لها: المستقبل ينتمي لبهيجة وحسب، بهيجة التي لم يكن يحيط كامل الإحاطة بقصتها بعد، فكل ما كان يعرفه عنها، أنها عاهرةُ زمانها.

وبختته بثينة برقة وهي تمسح وجهه بكفها الخشن، حيث لم يرُق لها كل هذا الجفاف الذي يتحدث فيه مع كنانة، فقال لها: من رأى الموت لا يستطيع أن يطلي وجهه بالمُجمِلات والمُحسِنات، الأقنعة لا تناسبني ولا استطيع ارتداءها، ولو كنت

أستطيع صبغ وجهي ومعالمي لفعلت.

كانت بثينة تشفق عليه أيَّما شفقة، وتشفق كذلك على قلب كنانة، شيء ما من السماء ناداها وقال لها: سَيطحَنُ هذا الشاب بلا مبالاته وضياع بوصلته قلب هذه الفتاة المُسيَّجة بالحب إن لم يُغير من مساره ويصحو من آلامه، وينسى كل تلك الأشياء التي شاهدها في الحرب.

قالت له وهي تمسح شعره ووجهه: هذه الفتاة تحبك كما لو أنك الوطن كله، إنها وديعتي لديك إن كنت تحسن حفظ الودائع.

فقال لها: ولدك أيضاً كان وديعة لديَّ من قبل مجيئي إليك، ولم أعده لك سالماً من غيبته، فكيف تريدينني أن أحفظها من حربٍ مدينةٍ لا أرَّ وجوه خصومي فيها ؟

فقالت له: لقد كانت روحك هي الوديعة، أما ولدي فقد كان له قدره وطريقه.

سألها مرة والمساء يعج بالبرد والصقيع: أيُّهما تحتاج مدينتنا أكثر: المحاربين أم العُشاق ؟

وهؤلاء المحاربون إن وجدوا، أيكون مكانهم المناسب على عتبات مداخلها أم بين أزقتها وحاراتها ؟ وأين يكون مكان العُشاق لو نبتوا فيها ؟ وهل هم بقادرين على قيادة المدينة لدورة

حياة جديدة، لا عسكر ولا تجار فيها ؟

أم لعلَّ من الحكمة أن يكون الطرفان موجودين فيها ؟ هذا يحب وذاك يحرس ويدافع، كيف يمكن لمدينة تحتوي مثل هذه التشكيلة أن تسير بأهلها نحو بر الأمان من دون تناقضات أو صراعات ؟

صراعات البندقية والقلب، صراعات من يَرَونَّ الدم مسفوكاً على الأرض أحلى ومن يرونه محفوظاً في القلوب يغذي الحياة أنقى.

أيُّ أحمق قال إن مشاكل مدننا تتلخص في الجنس وفي الدين؟ مشاكلنا كانت على الدوام تتلخص دون أن ندري في القلب، وفي أي اتجاه نريد لهذا الدم المتدفق منه أن يسلك.

علينا أن نكون حذرين مما نحمل من قناعات فالمدن لها قناعاتها أيضاً، لها رؤيتها التي تختلف عن رؤانا، المدن لها رؤيا الجشع والتنمر والاستئساد، ولكنها وبذات الوقت تحمل قناعات الخوف والجبن ورفض التغيير، حتى لو كان هذا التغيير لصالحها وفائدتها، تحب أن تستيقظ على ذات الشيء الذي نامت عليه، من غيرِ تبديلٍ أو تغييرٍ لوجوهِ مصاصيها، مشكلة مدننا فيها نفسها، فهي لا تنام على قناعات ثابتة أو أرض صلبة. تنقصها القناعات الراسخة المنطلقة نحو حياة تكسوها الأحلام الزاهية، لتصبح من خلالها مُدناً فُضلى كمدن أفلاطون.

ليس كأي مكان في دنيا المدينة أصبح الكُشك، ليس كأي ركن من أركانها ولا كأي زقاق من أزقتها، بعدما فاحت منه رائحة الحب الوليد وعطرته بالياسمين المخضب بالهوى، حب وليد تترصده المدينة من صباحها حتى هبوط ليلها.

رائحة حبٍ كما الياسمين اجتاحته، بعدما أبرَّت كنانة بقَسَمِها وجعلت من فارسها كاهنها الأول والأخير، حتى ولو لم يكن يتقن التعميد، إذ لا شيء يمكن أن يقف بوجه امرأة صلدة قوية ونظيفة تريد أن تأخذ رجلاً لدنياها.

كانت تحب فيه رجلاً ترغمها قسماته على حبه، يأخذها بعيداً عن سماواتها الداكنة وتناقضات مدينتها الموحشة، يؤويها من رصاص المدينة وبردها، من جوعها وعُهرها، يؤنسها في ليلها الطويل ويحميها من سمسار لا يعرف سوى بيع الصحاري، رجل تعرف أن ضلعه الأيمن موجوع مكسور، فيندهش من معرفتها ورؤيتها لذاك المخفي منه خلف القمصان، فتقول له: ألستُ خُلِقتُ من هناك ؟

جعلت من الكُشك صومعة لهذه المدينة، كل ما تريده مدينة كمدينتها موجود هنا: الحب والتاريخ، لا شيء تحتاجه المدن أكثر من هذين الشيئين لتصبح في عداد الخالدين.

في وجه الكُشك تكون التحليلات السياسية والأدبية والتنبوء بحركة المجتمعات ورصدها، وفي ظهره تكون القُبَل

المخفية، قُبَل حارقة كما الجمر، قالت له: اترك روحك وارم المدينة والحرب خلفك، ألا تسمع قلبي كيف يهتف بك ويصلي لعينيك ؟ ألا تُسقِط الأيام الخوالي عن كاهلك مع قُبَلي فترتاح وتُريح ؟ فاستنهض قواك وتجاوز حدود شفاهي وليعانق لسانك لساني، وتذكر أنْ لا شيء يبقى لك في دنياك إلا قُبَلي.

سألها: أحقاً شفاهك لِي أم أني مجرد مُغتَصب شريف لا يبغي تشويه سطوح جسدك قبل أن يمضي ؟

فقالت له: أين تذهب، وإلى أين تمضي ؟ أوَما علمت بأن هذا الكون كله سيصير بنكهتي لو أردتَ أن يكون، فاجعله أنت برؤيتك يكون، مشلول أنت وشللك من صنع يديك، أنت من جعل الشمس تغيب عن سمائك وأنا القمرالذي يهديك الطريق، تعال معي أفتحُ لك أنفاق الفرح، تعال معي ولتهدم أنت بيديك مع قُبَلي خرائب الماضي. قُبَلي تغذي أشجارك اليابسات وتنبت الأغصان الحية من جذورك، فاقطع ذاك الجذع الهرم لترتاح وأرتاح معك.

أيٌّ مطاف ذاك الذي ستصله لو غادرتني مبكراً من غير أن تمتلئ بقُبَلي حينما تمارس ارتشاف المطر من سقف حلقك ؟ ألا تراها إذ تمتد كأرض جرداء جدباء نحو شفاهك الكهلة تستجديها الرُضاب علَّها تعود لها نظارتها وطلاوتها.

يا رجل الشفاه الأنيقة أنت، أوَلا ترى أن شفاهك ستُهزَم

إن لم تعاكس شفاهي، ولن تجد من يُعيد لها صبابتها لو خاصمتها شفاهي.

سألها لما رأى النغزة التي بشفتها السفلى وقد بدا عليها أنها تتقصد إظهارها أمامه: من أين جاءتك هذه النغزة ؟ وكيف شوهتك فصارت شبيهة كرِجلي المصابة ؟

فلم تتردد بجوابها أو تخجل منه وقالت له: زرعها ابن الذوات كبصمة بشفتي يوم خلا بي في السينما إذ كان يصحبني إلى هناك، كنتُ فرحة بها وكأنها عقد بيننا بعدما أوهمني أن وجودها يديم رباطنا حتى نستبدلها بعقد زواج. فاكتشفت فيما بعد أنه وضع مثيلاتها لكل بنات جيلي ومن هنَّ بعمري أيام المدرسة الثانوية، كان المُختل يحب ترك العلامات كما لو أنه يضع بصمته، فهل تهزمك ندبة داخلية صنعها مهزوم كذاك المهزوم الذي أصاب رِجلك ؟

أستهربُ منها وتهزمك الندب وتنطوي عني وعن شفاهي هناك داخل الكُشك ؟

استنهض عزائمك وتجاوز شفاهي واقتحم غرزتي ولامسها بلسانك حتى تكون البصمة لك أنت دون سواك.

قال لها مبتسماً: أيكون التحرير هو قدري دائماً ؟ وهل خُلِقتُ لأكون حامياً ومحرراً وحسب ؟ أتعبني تحرير الوطن فإلى

أي حد سيتعبني تحرير شفاهك ؟ أكُتِبَ عليَّ أن أبقى محرراً ومُخَلِّصاً حتى آخر رمق من عمري، فلا تُريحُني المدينة ولا الدنيا؟

فضحكت ومدَّت يديها تطوقه وتعانقه وهي تهمس بأذنه: بل كُتِب عليك أن تكون بطلاً دائماً، فليس كمثلك رجل يا رجلي ورجل الوطن، فقال لها: إياكِ أن تنسي أن أبطال التحرير دائماً ينتهون مع انتهاء رسالتهم.

فبقيت على ابتساماتها وهي تقول له: تحريرُ الجبال لا يصرع المنتصرين بعكس تحرير الوديان والرياض، كل ما عليك فعله هو الانتصار واحتلال شفاهي، فكن إلى جانبي دوماً حتى لا يأتي آخرون ويزرعون ندباً أخرى لو ذهبت لحرب أخرى.

قال لها: غريبة أنت، مع القُبَل يصفر وجهك بدل أن يحمر.

فقالت له: لأنني أشعر مع كل قُبلةٍ تلسعني حرارتها منك بأنها ستكون القبلة الأخيرة، فلكَم أخاف الرجال الذين يختبئون خلف القُبَل، وأخافهم أكثر حينما يُقَبِّلون فتاتهم بعيون مفتوحة على الطريق المؤدية لبيت ليس ببيتها.

مذ رأيتك وأنا أخافك، أخاف رحيلك، أخاف أن تستقل أول محطة وتمضي من غير أن تعود، فالكل أخبرني بأن لا أثق بقلب محارب، وحذرني من أن لا آمن لحظة رحيله وغيابه لو استيقظت عارية في سريره في صباحٍ يخلو من الندى.

القُبَل التي أحبها منك أخافها وإن كانت تُلهبني كحبة كستناء على مدفأة الشتاء، وبعض الخوف الذي ينتابني عليك لا يتأتى من وِجهة الرحيل أين تكون، بقدر ما يكون من الرحيل ذاته.

قُبَلُك تجعلني أخاف الكُشك، أخاف لو اندثر يوماً وجرى مكروه له أن تختفي أنت مع اختفائه، فقل لي في أي اتجاه ستمضي إن اختفى الكُشك يوماً ؟

فقال لها: لئن قُدر للكُشك أن ينتهي فسأنتهي معه، وإن عَمّر وتخلّد فسأخلد معه إلى الأبد.

لمحت في الكُشك شيئاً غريباً يتربص به وبقلبها، شيئاً يكاد يكون رحيلاً أو موتاً، لم تستطيع أن تميزه فقد كان بأنياب كبيرة وشكل متوحش كريه.

ومنذ رأت ذلك الشيء وهي تكره الكُشك وتكره اللون الأحمر وتخشاه لشبهه بلون الدم.

فنادتهما بثينة للطعام وهو يسألها: هل أنت صوفية ؟

****

تشيخ صويلح والكُشك لا يشيخ.

مدينةٌ هي بحجم النعيم والقبور، بحجم اللوز لو يصبح ناضجاً، وبحجم الصبار لو صار أصفراً.

فيها العالم مختصراً بضحكات الأطفال وثرثرة العجائز وفشل الشباب وانتكاسات أحلامهم حينما تصطدم بواقع مُرٍّ زمهرير، فيها النوم الطويل تعتريه الكوابيس بعد أن ضاع الحلم على أيدي من مروا فيها يوماً ولم يرجعوا، فيها الصباح المشرق بالملل المتضاحك بالرياء والبنية التحتية المتهالكة، فيها المزاريب التي وُضِعت على أسطح البيوت ولا تدري أين تُلقي بمياهها العابرة منها.

صويلح مدينة تستقوي على نفسها بنفسها عَلَّها تصبح مدينة كباقي المدن، وكأنها وهي تمارس هذا الإستقواء تريد أن تكتنز بالتجارة ودور العلم وصالونات السياسة، فتجد نفسها بعد أن يهجع الليل مدينة قد صار الجهل فيها سلاحاً والفقر علامة تجارية فارقة.

تشيخ صويلح مع الذكريات والأيام التي تنسحب منها دون أن تشعر، ذكريات تبدأ من النكبة مروراً بالنكسة حتى أيام الكرامة وما فعله الفدائيون فيها بعد ذلك، تشيخ فتصبغ وجهها بأسوء أنواع المساحيق ظناً منها أنها بذلك تلحق ركب الطواويس، فتكتشف بعد فوات الأوان أنها ظلت الطريق ولجأت إلى أسراب البوم والغربان.

غَرَّها زهو الألوان، ونسيت أن الطاووس في أصله مختال، يسكنه الغرور لايقوى على فعل شيء، فضحتها التجاعيد الرابضة

تحت العينين، فصارت كذاك المهرج الذي زارها يوماً يبغي إضحاك أهلها، فبرز له الطفل المتسول وجعله أضحوكة لهم.

تشيخ صويلح كما يشيخ الطائر الوردي ليموت بطيئاً بطيئاً، يزحفان سوية نحو الكهولة والعقم وهما يشهدان بثينة التي لا تمل من رمي سؤالها المتكرر في وجه القاسمي: هل يكتبون شيئاً عن ياسر عرفات وفضيل الأسدي، ويرد عليها: يكتبون عن ياسر عرفات ويرصدون تحركاته ومؤتمراته ولقاءاته وجميع أخباره وتصريحاته، ولكنهم لا يربطونه بمعركة الكرامة، أما فضيل الأسدي فلا أحد يأتي على ذكره وليس له سوى كلمة يلقيها أيام الاحتفالات السنوية كل عام مع التدرج برتبه العسكرية عاماً بعد عام.

وفي المقابل فإنهم يذكرون أسماء بعض القيادات التي لم تشارك في الحرب، قد توجهت إلى لندن لعقد صفقة سلاح مع وفد عسكري رفيع.

كانت بثينة تفهم السياسة بطريقة بسيطة وسَلِسَة، تفهمها من غير تكلف أو تعقيدات كحال زوجها وابنها، فقالت ساخرة: الأول يذكرونه بحكم منصبه الذي لا يستحقه ويستغله في استجداء أموال العالم لينهبه ويُجيره ليصنع أسطورته الوهمية حتى لو كانت على حساب القضية الفلسطينية نفسها، والآخرون الذين ذكرتهم ما هم إلا سماسرة للبيع والشراء.

عن أي تحديث للسلاح يتحدث هؤلاء اللصوص، أوَّ ليس من الواجب علينا أن نُحدِّث الإنسان الذي بداخلنا قبل تحديث ترسانة متهالكة أصلاً ؟ هل انتصر ولدي وجيشه يوم كنت معهم بالسلاح المتطور والفتَّاك ؟

ألم ينتصروا بالإنسان المتطور في داخلهم ؟ الإنسان الذي لا يرى إلا الخيار الصائب فقط، فماذا تتوقع من هؤلاء الذين صادروا أمجاد أمة بأكملها ؟

فعاد للصحف يُقلِّبُها وهو يقول: هذ المرأة هي الوحيدة التي تفهم حقيقة هذا الوطن، وأقسم أنَّ لها كلاماً يلسع كإبر النحل.

فقالت كنانة: ليس من شيء يلسع كإبر النحل مثل حبك أنت أيها الجميل، أيها الأول والآخر والوحيد في فضائي المُعد على قياسك أنت دون سواك.

كلُّ الأوائل لهم نكهتهم: حبنا الأول على الرغم من خياناتنا له ألف مرة، وتجاوزنا عنه لحب ثانٍ وثالث ورابع، سيجارتنا الأولى التي نشعلها في صباحاتنا العكِرة، إبننا الأول حتى لو أنجبنا بعده رزمةً من الأطفال، انتصارنا الأول إن كانت لنا إنتصارات، فنجان قهوتنا الأول الذي لا يروينا ولا نكتفي به، شهيدنا الأول وإن تلته فاجعتنا بطوابير الشهداء الذين سيلحقونه، حتى الأول في المدارس كانت نكهته مختلفة عن

البقية، الأول دائماً هو الأساس والمحور، أما ما يأتي لاحقاً فما هو إلا استكمال للحياة التي نحياها ولسنوات العمر التي نقضيها لأجل قضائها وحسب.

إننا نبحث في الحبيب الجديد دوماً عن نكهة الأول فيه، نتحسس الجماليات التي بتنا نفتقدها في ذاك الراحل إرادياً أو إجبارياً، فسيان أمر الرحيل وإن اختلفت وتفاوتت أسبابه، نتحسس فيه جماليات افتقدناها يوماً ونحاول اكتشاف تلك الجماليات التي تعودنا عليها زمناً معلوماً.

نحاول مع صاحب التجربة الجديدة أن نُحيده عن سلبيات السابق بقدر ما نستطيع، ولكننا في قرارة أنفسنا لانريده أن يكون نموذجاً مختلفاً بالمطلق عن سابقه، نُريد منه أن يُبقي على بعضٍ من معالم من سبقوه إلى قلوبنا.

نُريد من هذا الرابض في عالم اللاوعي وعينا أن نحاكم من خلاله الأشياء ونقيسها عليه، فالأول كان وسيبقى دائماً مقياسنا للأشياء بسلبياتها وإيجابياتها، فإذا ما تحول الجديد ليكون مقياساً مُستحدثاً - وسيتحول تلقائياً في مرحلة ما - فإنه يأخذ إجبارياً دور القديم، ويصبح هو المحور الذي تُقاس عليه الأشياء وإلا فإن تجربتنا معه سيكون مآلها الفشل والوهن كبيت العنكبوت بل أشد وهناً.

أليس من العيب أن أطلق على حبيبي الأول كلمة قديم؟!

لماذا نعظم من مسألة ماضي المحبوب ؟ وننسى أن بعض ماضيهم مفيد لنا ليعرفوا حجم النعيم الذي باتوا يرتعون فيه، ليعرفوا أن هناك قلوباً في هذا العالم لا تثور فيها الزوابع ولا الأعاصير، لا تريدُ إلا أن يكون ساكنوها هادئين ورعين ودودين.

أهذه شروط صعبة أم أننا بتنا نستصعب كل شيء حتى صغائر الأشياء ؟

الأدوار وتراتُبياتِها تتبدل بتبدل المراحل العمرية وتنقُلها، فلكل مرحلة معطياتها وأشخاصها، أبطالها ومحركوها، مُلوكها وصُناع أحداثها ولاعبوها الأساسيين، ولا عجب إن رأيتهم في مرحلة أخرى من مراحل العمر لا يقدرون على إزاحة الأحداث عن مسارها ولو بمقدار شعرة، حتى لو تواجدوا مع أولئك الاشخاص الذين عاصروهم في مرحلة عمرية سابقة.

فمثلاً ما كان يناسبنا في عمر المراهقة قد لا يكون مناسباً لنا أثناء الشباب، والذين قدَّسناهم وعبدناهم أثناء الرجولة وعمر الصِّبا قد يشكلون لنا حِملاً ثقيلاً في المراحل المتأخرة من أعمارنا، تلك المراحل المسماة بمراحل الكهولة والشيخوخة.

فالمراحل العمرية لها ظروفها تماماً كما الأعمال السينمائية، عليك أن تترك الأشياء فيها لإيقاع الحياة، عليك أن تشعر بالتغييرات التي تطرأ عليك وعلى مقابلك وتتماشى معها، عليك

أن تبدل ثوبك وتسلخ جلدك مع كل مرحلة عمرية حتى تبقى متقداً ومشعاً.

ومن هنا يصير لزاماً عليك أن تراكم الأشياء وأن لا تفصلها عن بعضها ، عليك أن تتوخى الحذر من أن يُصاب حبيبك بالملل والضجر منك فيغادرك في ليلة ما كنت تعتقد أن العواصف ستثور فيها.

يا أنت، كفاك ثقة عمياء بأشياء لا تستحق منك الثقة، كفاك المراهنة على عمرك والليل، فالعمر مضى منك هارباً والليل لا يستحق أن يكون صديقك ولا مؤنسك، أنسيتَ أن فيه اللصوص يتراكضون خلف ما اقتنته ذاكرتك من أحلام وآمالٍ عظام، رسمتها أنامل أبيك في فقر وعوز، يتراكضون خلفك محاولين اقتناص أشياءك التي ما كنت لتساوي شيئاً من دونها. فما الذي بدل حال اللصوص في بلادنا ليصبحوا قتلةً لا سُراقاً؟

تتغنى بالليل وتنسى - ويا كُثر ما نسيت - يومَ وقعت فيه على السلالم لمّا قصدت البيت عائداً من نهارٍ مُغبرٍ من عرقك، مجبولاً بقهرك وسخطك، تتفحص وجوه المُومسات الباحثات عن ابن امرأة أفنت عمرها وشبابها تربيه وترعاه مخلصة لإنسانيتها وزوجها.

يا أنت، هل عساك جننت فأمِنت الليل وفيه الحكومات تبيع وتشتري فينا ونحن نتظاهر بأننا لا ندري.

تأمن الليل ؟ وأنت تعلم أن النجوم التي تراها متلألئة فيه ما هي إلا نيران مستعرة تتغذى على خوفنا وقلقنا وأرواحنا المغطسة بالجحيم.

هذا الليل الذي تراهُ هادئاً ترسمه كالحمل الوديع جعل صويلح تهتز من أعماقها، فترتج لها أعمدة السماء وهي تستيقظ مفزوعة مهرولة نحو الكُشك المحترق، تحاول إطفاء النيران المندلعة فيه لإنقاذ ما يمكن انقاذه من أركانه التي تساقطت تباعاً ولم تهمد أمام سعير اشتعالها.

انتفضت بكل أهلها تساهم بعملية الإطفاء إلا بثينة والقاسمي اللذين توجها نحو كنانة الجالسة على الرصيف القريب تبكي ويمسح الطفل المتسول دموعها إذ يهدهد شجنها وجنونها.

سألاها وقد عرفا أنها هي التي أضرمت النيران بالكُشك بمساعدة هذا المتسول الصغير الذي لا يعرف أحدٌ في صويلح كلها أين يبيت ولا كيف يأكل، سألاها عن سبب فعلتها هذه، فارتمت بأحضانهما وهي تقول: صوتٌ ما يأتيني من الكُشك ويخبرني بأن هذا الكُشك يتربص بكما وسيحرقكما كما تُحرق الفراشات في الليل، من الكُشك سيأتي ما أخافه.

احتضنتها بثينة ونظر القاسمي نحو بيت بهيجة وهو يقول: لا تفرحي كثيراً، فلن يأتِ النهار إلا وقد أعدنا بناءه.

لا شيء يكتبه العالم عن الكرامة، نسيها وكأنها كانت مجرد حفلة وانتهى وقتها، لا شيء يُذِكِّرُهُ بها بعدما نسي انتصاراتنا وتضحياتنا وبسالتنا في ذلك اليوم، نسيَّ أنّا ذبحنا مستقبلنا كشاة فائضة عن حاجتنا من أجل وطننا.

قال لبثينة: لا تكترثي كثيراً بهذا العالم ما دُمنا نعرف الحقيقة وقد صنعناها بدمائنا، وظلي متذكرةً أنّا ما قاتلنا ليمجدنا العالم ويصفق لنا، فنحن لم نكن نراه أو نفكر به يوم واجهنا راحيل والموت، لم نقاتل لأجله بل قاتلنا لأجلنا نحن، لأجل الكُشك والطائر الوردي، لأجل السنديان وبيارات الأغوار، لأجلك أنت وكنانة.

فقالت له: لست من سُعاة الاطراء والتبجيل من هذا العالم، ولكني أخاف على نصر المقاتلين أن يسلبه تجار الحروب والسياسة، فيصدق الناس أصحاب البدل الأنيقة وأكاذيب عرفات.

دبَّ اليأس والكدر فيها، غابت عنها ابتسامتها وعادت تجلس داخل الكُشك عند كنانة، وكلما حاول علي وكنانة أن يُسليا عنها بعض الشيء كانت تجاملهما قليلاً ثم تصمت.

شكَتْ لهما من أنها لم تعد ترى ولدها في المنام حيث كان يزورها كلَّ ليلة تقريباً، كانت تبكي وهي تسرد لهم كيف كانت تُضاحكه في الحلم ببراءة الأمهات الخائفات على أولادهنَّ من

رجولتهم الخجلى، وتقول له: تغذى جيداً يا ابن أبيك، فحوريات الشهداء في الجنة كُثُرٌ ويلزمك صحة جبارة لتطويقهنَّ جميعاً.

حلمت به كل ليلة، فكانت تفرح بلقائه وينعكس هذا اللقاء عليها في اليوم التالي، كانت تفرح بلقائه وكأنها ولدته من جديد، وإذا ما مرت ليلة من دون أن تراه، أصابها الحزن والكدر والإحباط فتخاطب السماء باستضعاف قائلة: لا أطلب الكثير يا إلهي، فكل ما أريده رؤيته في المنام ليس أكثر، أوَ حتى رؤيته في المنام صارت مُحالة عليَّ ؟

غير أن القاسمي لم يكن ليقبل بوضع بثينة على هذا الشكل، لم يكن ليرضى تركها على هذا النحو من البؤس والحزن، رأى أنَّ من واجبه حملها على الفرح وإن كان هو نفسه غير قادر على استحضاره، لم يفهم أن فاقد الشيء لا يُعطيه، فإن أعطاه فسينقلب عليه بعد حين، ظل يعتقد جازماً أن وظيفة المحاربين تنحصر في تقديم العون والمساعدة للآخرين، حتى لو كان هذا على حسابهم وخارج نطاق حروبهم.

انتفض بعد ظهيرة أحد الأيام من مكانه وصاح يحمل ورقة جريدةٍ متمزقة الأطراف، لا يتضح عليها اسم الصحيفة ولا تاريخ إصدارها، كان ذلك قبل أن تهبط الشمس في تموز، وشمس تموز في صويلح تختلف عن سواها من شموس.

توجه إليها وهو يقفز ويتمايل متراقصاً يردد على مسمع بثينة بالانجليزية:

The Arabs did it. They actually won.

ابتسمت لدى سماعها الكلمات الإنجليزية من دون أن تفهم معناها، اعتقدت جازمة أن هذه الكلمات لها علاقة بما تحب أن تسمع، فاقتربت منه وهي تقول: ألا تكف عن هذه الحركات الصبيانية وتخبرني عما هو مكتوب بهذه الصفحة ؟

وأمام إصراره على مناكفتها واستثارة فضولها العارم، تدخلت كنانة وترجمتها لها قائلة: فعلها العرب وانتصروا.

فقفزت مثل الطائر الوردي أيام كانت له أجنحة من ياسمين يغرد بها في سماء الوطن، تغني مع كنانة والقاسمي وهي تقول لهما: ألم أخبركما أن الخواجات لا ينسون أبدا.

أمام هذا المشهد العجائبي الغريب على صويلح، صويلح الصامتة المتحجرة الخرساء التي لا تعرف من فنون الرقص والغناء شيئاً، صويلح التي ما تدربت إلا على على العزاء وأحاديث المقابر.

أمام هذا المشهد بدا ثلاثي الكُشك غريباً عجيباً على أهلها، فتجمعوا ووقفوا يتابعون أغانيهم وحركاتهم وكأنهم أمام فرقة من فرق الغجر التي كانت تزور مدينتهم قديماً في أشهر الصيف، وقبل أن تختفي لاحقاً بعد الحرب.

شعر القاسمي بالفرح وهو يضيف السعادة لبثينة، رأى في سعادتها تعويضاً عن سعادته المسروقة من حرب الكرامة، قال لنفسه: السعادة أنواع وأشدّها قسوة هي تلك السعادة المنقوصة، اقترب من بثينة وقال وكأنه يعزف السيمفونية السينائية التي لم يعزفها العازفون والملحنون بعد: ليت الكرامة لم تكن وليت ابنك ما رحل، ولكَم أتمنى لو تعلمين أني ما تراخيت عن حماية ولدك، ولكن غرَّني الأنبياء والصحابة، فظننت أنهم براذين الموت عنه.

فقالت له وهي تمسح على عيونه وتضربه على بطنه في محاولة منها تحاشي سقوطها وإياه في فخ الحزن مرة أخرى: ما كان بأيدينا حيلة ذلك اليوم، وتذكر أن الموت كتاب مكتوب علينا، لايرده الا مَنْ كتبه، فلا تلم نفسك، ولا تجلدها كل هذا الجلد، ولا تحملها ما لاذنب لها به، واترك عنك لومك وتقريعك يا كبدي أنت ويا حبيب أمك وحبيبي، وتعال أسمعني ما عزف هؤلاء الخواجات فإني ما طربت منذ زمن بعيد.

كنانة قالت لنفسها وهي تمسح دموعها فرحة بأفراحه وأفراح بثينة: متى سيحبني هذا الرجل بكل ما يملك ؟ متى سيعشقني بضع ما أعشقه فيسعى لملء قلبي بالفرح كما فعل مع بثينة، ثم نظرت إليه بنظرات الإكبار والإعجاب، فعلم أنها لم تشرب مسرحيته التي أتقن تمثيلها أحسن إتقان.

تذكرته يوم شاهدته أول مرة يوم الكرامة، وكيف

أصبحت تتساءل منذ ذلك اليوم خائفة عن النهاية التي سيؤلان إليها، قلبُها كان يخبرها عن فاجعة محدقة بها، فكذبته وآمنت بما قالته لها بثينة من يوم رأت عليها الولع بعاشقها الوسيم حيث قالت لها: سيلحق اسمك باسمه وتنتسبين له يوماً، فلا تستعجلي الأشياء واجعلي الأحداث تأتي في ساعتها التي تقررها هي لا أنت.

فسألتها: أتريدينني أن أكون أرجوحةً بيد القدر يُميلُني شمالاً وجنوباً وكأنني واحدة ممن لبثوا في الكهف سنينَ عددا، أسترحم الأيام وأتوددها مستعطفة كجاهلة عربية لا تعرف من الحياة إلا الاستسلام لها.

لا وحق ابنك الشهيد، فلأخطونَّ إليه ساعية بكل أوردتي وعيون قلبي، وليجثونَّ أمام قلبي أحمله ويحملني، وإني لقادمة إليه غير مفارقة روحه حتى يخضع أمامي وينهزم لإرادتي ويتبناني كمعشوقة لا يستطيع الفكاك منها.

أما هو، ابن الحرب والتوهان، فلم يكن يرى في قصتهما أية بدايات أو نهايات، آمن أن ما اعتبرته هي بداية كان بالنسبة له النهاية ذاتها، إذ سقط بمجرد اللقاء الأول سقوطاً غريباً، سقوطاً معنوياً وروحياً وجسدياً.

فهل كان سقوطه هو النهاية لقصة ما آذنت شمسها بالسطوع؟

صارت تتساءل بألم وحرقة: متى يراني هذا الرجل بما وراء ذاكرته وهمومه، متى يراني بلا وعيه الرابض في أعماقه فيُحيل قلبي إلى حديقة من الورود ؟ ذاك أن الأيام علمتها عدم الوثوق برجل يكتفي برؤيتها من خلال عينيه.

فلسفتها في العشق كانت تقول بأن الحب باللاوعي يجعل من الرجل صريع المرأة كما لو أنه مربوط بحبل من نار لا يستطيع الفكاك من عقاله، فيستلذ بذاك الاحتراق الكيميائي الذي يعيشه ويلاقيه منها.

يالبساطة أحلامنا في مدن الشرق ما أصغرها وما أعظم معانيها، يا لعفويتها وبراءتها ما أطهرها وما أحلاها، نحمِلُها بحلم مأمول ونتركها بفاجعة قاتلة، فذاك كان يحلم بإيصال وردة، وهذه تحلم لو يراها حبيبها.

أمّا تلك الثكلى، فقد ودعتها الأحلام وتنازلت هي بدورها عن نصيبها فيها منذ يئست من عودة ولدها.

لما كان يترجم لها المقالة كاملة بكل تفاصيلها وحيثياتها كما طلبت منه، قال لها وهو يغمزها: إن الكاتب يصف الجنود بالنشامى، فهل أكتبها ؟ فعلمت أنه يمازحها ويضاحكها، فضحكت وشدته من شعره وأخذت تكررالعبارة بالانجليزية من خلفه حتى حفظت نطقها مع بعض الاخطاء التي ما استطاعت تلافيها.

الصحفية الماهرة والناقده المنتظرة تسير بخطوات ثابتة نحو كعكة النجاح والحصول لها على موطئ قدم في عالم الأدب والنقد والصحافة، فقد صار لها قُراؤها المتابعون لها والحريصون على قراءة ما تكتب في زاويتها وتحقيقاتها التي لم تكن مجرد تصفيف كلام أو تعبئة مساحات لا فائدة منها كما هو حال أغلبية الكُتاب.

فطرحت نظرية نقدية جديدة تطالب من خلالها بأن يُعاد للأدب دوره، بحيث يصبح كله ديوان الإنسانية وليس الشعر منه كما كان يراه الجاحظ، فقد رأت أن الأدب الحديث في مجمله مجرد ركام من الأوراق، تمارسه فئة معينة من الناس من دون أية امتدادات مجتمعية راسخة، وعزت هذا الأمر إلى عدم تفاعل المتلقي مع الأدب، مما جعل هذا الأدب عاجزاً عن الوصول إلى عمق الإنسان فينا، بعد أن غرق في الإبهام تارة وفي العقم الوظيفي تارة أخرى.

تساءلت منذ بداية كلامها عمن قتل الأدب والأدباء ؟
عمن أشهر سيفه بوجه الناس يقطع ألسنتهم وينسيهم بلاغتهم ؟
عمن قرر أن الإنسان ليس شاعراً بفطرته، ليس أديباً بولادته ؟

وحَمَّلت في مقدمة بحثها مسؤلية عقم الأدب الحديث وعدم فعاليته بين صفوف الناس والمجتمع، إلى تغريد الأدب وتحديداً الشعر منه بعيداً عن حياة الناس، وفشله في الاقتراب

من ملامسة اهتماماتهم اليومية وطرائق عيشهم، ضاربة الأمثلة الكثيرة على هذا البَون الحضاري الشاسع بين ما يقوله الأدباء وبين ما يعيشه الناس.

تساءلت مستنكرة كحال الكثيرين ممن تساءلوا عن المنطق الذي نتحدث فيه عن الخيل والسيف، والعالم يحارب بالقنابل والصواريخ والمدافع ؟ أين نحن من معطيات العصر الحديث كالأدوات التكنولوجيه التي تُرافق وجودها مع الحداثة الصناعية والعولمة على وجه الخصوص ؟

الأدب مفتاحنا لفهم أرواحنا وليس لفهم الآخرين أو إفهامهم أشياء هم لا يفهمونها أو لا يريدون فهمها، الأدب ليس عبوراً نحو الآخر والوصول إليه بأقل التكاليف بقدر ما هو إبحار نحو ذواتنا، نحو أنفسنا.

إذ إن من الواجب على شعرائنا أن يوصِلُونا إلى الطريقة التي تأخذ فيه آذاننا الجِرس الموسيقي لسيارة مكان حصان، لجَرَس إنذار مكانَ نُباح كلب، لصاروخ مكان سهم، لشقة مكان خيمة، وهكذا دواليك.

ومع أن الكثيرين من الأدباء والشعراء نادوا بما نادت به، إلا أنها حاولت أن تصوغ الفكرة بعبارات أخرى، علَّها تُحسب على أصحاب الريادة في هذا الموضوع كما هو حال الرباعي العراقي المرعب في ريادة الشعر الحر.

أما رؤيتها التي انفردت بها وكانت لها بحق، متجاوزة بنظرتها وعمقها الكثيرين ممن ادعوا بأنهم أرباب الفكر والنقد، فقد أسمتها فوضى الكتابات والتي جاء فيها على لسانها:

علينا أن نتجاوز بل أن نرمي عرض الحائط كل ما جاءت به الحداثة وما بعد الحداثة من وَهْمِ المعالجة المُدَّعاة للنص الأدبي على اختلاف أنواعه، فقد أثبتت جميعها فشلها في التعاطي مع هذ النص، وبقيت هذه الأدوات مجرد أدوات بائسة لا تقوى على حل الغموض والإبهام الذي اكتنف الأدب من بنيوية وتفكيكية ونقد نسوي وثقافي وغيرها من النظريات الهشة الاستعراضية غير المحابية للواقع الأدبي في شيء، والتي ساهمت في ازدياد الفجوة ما بين النص والقارئ على اختلاف مستوياته الثقافية والمعرفية والذوقية.

إن خير وسيلة لإزالة الإبهام والغموض الذي غزا الأدب وأنهك معانيه وأفكاره - فساهم في انصراف الناس عنه - يكمن في القدرة على تبديل "الكلمات" نفسها، بحيث يصبح القارئ شريكاً في إنتاج النص وليس مُرغماً على الوقوف عند كلمات المؤلف نفسه، مما يجعل العمل الأدبي أعمالاً والنص الواحد نصوصاً، لأن المؤلف في مثل هذه الحالة لم يعد مؤلفاً واحداً وإنما أصبح عدة مؤلفين.

يحدث هذا شريطة أن يعمد المتلقي الواحد إلى كلمة أخرى

يضعها مكان الكلمة الأصلية في النص المراد تحليله وقراءته، بحيث تتوافق هذه الكلمة مع سياق الكلمات الأخرى داخل النص، وليس من حق المتلقي أن يتبنى أكثر من كلمة واحدة في القراءة الواحدة بعد أن يجرب بحرية مطلقة ما يُريد أن يُجربه من كلمات مكان الكلمة المعنية، فإن أراد أن يكرر الكلمات من جهته فإنه محتاج لتكرار قراءاته، وبالتالي فالكلمة الأصلية للمؤلف الأصلي تصبح مقياساً أصلياً لتعدد الكلمات وهنا يكمن دوره المحوري.

دعونا نعاقب الإبهام وغياب دور الأدب بالاحتلال اللفظي، دعونا نثورعليه لنجعل منه لقمة سائغة للمتلقي، والذي هو بدوره صارالمبدع الجديد والأديب الجديد.

دعونا نجعل من كل الناس أدباء ومشاركين في إنتاج النصوص، دعونا نعيد لهم لغتهم التي سُرِقت منهم،فبدل أن نطلق على النص القراءة الأولى والثانية والثالثة، دعونا نجعلها الكتابة الأولى والثانية والثالثة.

وإلا، فأخبروني لماذا كنَّا نطالب بموت المؤلف عبر سنوات ضياعنا داخل النص، عبر هجر الإنسان للأدب وركنه بعيداً عن حياته، حيث المخاصمة والقطيعة هي ما تميزعلاقتهما ببعضهما البعض.

فليبقَ المؤلف حياً إذن، ولكن لتكن حياته وعدم موته في

النص مشروطة بقبوله حياة الآخرين داخل نصه الذي أبدعه.

دعونا نفسح المجال أمام الإنسان العادي ليتصالح مع الأدب، من خلال إعادة إنتاجه وصياغته، شريطة أن يلتزم بالمعنى الدلالي للكلمة المُستَبدلَة والإيحاء الذي تحوم حوله هذه الكلمة، فلا يخرج بها عن النسق العام للنص الأدبي والفقرة الأدبية التي بين يدي القارئ أو المؤلف الجديد، بحيث لا تضيع روح النص التي أرادها المؤلف (الكاتب) الأصلي، فالمعنى من حقه والفهم من حق الآخرين.

إذن، فلا مشكلة في عالم الأدب بل من الحق كل الحق على المتلقي إن واجهته مشكلة في فهم أو استلطاف كلمة معينة في نص ما، من تبديلها بأخرى إن لم نقل بأخريات، مهما كان مستواه المعرفي والثقافي والنقدي، اعتماداً على ذوقه وحسه هو دون سواه أولاً وآخراً، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر بيت الشاعر الجاهلي المثقب العبدي إذ يقول:

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ماوصلت كأن تبيني

فيستطيع المتلقي أن يغير المنادى إليه باسم محبوبته هو، كأن ينادي سعاد أو ليلى أو حتى ديما وبلقيس و....

ومكان "بينك" يمكنه وضع كلمة تحمل نفس المعنى مثل:

هجرك، رحيلك، غيابك.. ومكان "متعيني" : أفرحيني، أسعديني، قبليني، عانقيني...، ومكان "منعك": رفضك، ومكان "تبيني": تفارقيني تهجريني... وهكذا دواليك.

ليصبح النص مع تعدد الكتابات على الشكل التالي:

يقول المثقب العبدي وكنانة العمانية (ومن حق الكاتب الجديد أن يضع اسمه بجانب الكاتب الأول):

ابثينة قبل هجرك أسعديني

ومسكك ما يسرني كأن تهجريني.

وأيضاً، يقول المثقب العبدي وراسم التعمري:

أسارة قبل رحيلك عانقيني

ورفضك ما يفرحني مثلما تفارقيني.

و يأتي ثالث ورابع وعاشر وألف آخرون يدلون بدلوهم في ذات العمل الأدبي الواحد، بحيث يكتب كل واحد منهم ما يراه مناسباً له وموافقاً لذوقه، وكأننا ونحن نفعل هذا نضع عدسات مختلفات الحجم والمقاسات على أعيننا لنرى الوحة ذاتها بزوايا مختلفة وإضاءات متعددة.

علماً أن المعضلة التي سنواجهها في مثل حالتنا هذه تكمن في إمكانية اصطدامنا بالعروض الشعري، فمن أراد أن يلتزم به فليلتزم ومن لم يرد فليخرج عليه من دون تردد، وخصوصاً أن

الوزن الشعري برمته كان أكذوبة صنعها العرب على امتداد قرونهم الطويلة، وليتحمل هذا العروض وصانعوه بعض الأسباب التي أدت إلى تأخر مواكبة الشعر للحياة العامة وعزوف الناس عن الشعر في العصر الحديث.

مع العلم أن هذا العروض ما هو في حقيقته إلا جِرس موسيقي جرى على لسان قبائل العرب ومناطقهم، كلٌ قبيلة ومنطقة لها بحرها الشعري الخاص بها وكأنه أشبه بلهجة خاصة بها، ثم تداخلت البحور الشعرية بين أبناء القبائل والمناطق العربية بحكم الاختلاط فيما بينها، وليضيع مع هذا الاختلاط الحد الفاصل بين مرجعية كل بحرٍ شعريٍّ وقبيلته ومن ثم منطقته.

وما يدل على هذا أن القرآن الكريم حينما نزل بقراءات متعددة، ما نزل على هذا النحو إلا ليوافق هذه الاختلافات الصوتية وقبائل العرب ومناطقهم، فالقراءات القرآنية في حقيقتها تحدٍ بلاغيٍ للقبائل العربية أن يأتو بمثل القرآن الكريم إن استطاعوا، كلٌ بلغته وموسيقاه الخاصة وعلى حده.

مرة أُخرى وبالعودة لنظريتها، تقول العمانية مستأنفة شرحها: ما حدث للكلمات الصريحة يمكن أن يحدث للضمائر بصريحها ومضمرها، فنقول مثلاً بخصوص قول بدر شاكر السياب:

"سيزيف" يرفعها فتسقط مع انهيارك للحضيض.

يقول السياب والمواطن محمد المعاني:

قلبي يحمل الصخرة فتهوي مع انهيارك للحضيض.

ويقول السياب والمهندس ماجد الغزوي :

سيزيف يحمل الصخرة فتسقط مع سقوط الغزوي للجحيم.

وقد رأينا كيف بدّلنا الضمائر بأسماء صريحة لتصبح أقرب لنا وأوضح، ومن ثم تكون ملامسة لنا بشكل مباشر.

ثم أنهت مقالتها بالقول: ليس بالضرورة أن نعيد كتابة كل مفردات النص، والأولى ألا نفعل هذا، حتى لا تضيع ملامح النص الأصلي وندخل في متاهات جديدة نحن في غنى عنها، وخصوصاً أن طريقة القراءة الجديدة هذه، ستجعل من الجميع شركاء في النص، بحيث تصل أفكاره منهم وإليهم من غير حاجة لهذا الكم الهائل من الدراسات النقدية والأسلوبية التي تعج بها المكتبات من غير داعٍ.

طوى القاسمي الجريدة وهو يقرأ آخر كلمة من مقالها ويقول: الآن فهمت لِمَّ لم يكن ماركس ماركسيا، ولِمَّ لم يكن حسن البنا إخوان مسلمين، لأن المثقب العبدي لم يعد المثقب العبدي والسياب يتقول أشياء لم يقلها.

ثم قال لبثينة بصوت عالٍ حيث ضجيج الشارع يقف

حائلاً أمام صوته الخافت ومسمعها: فتاتك هذه لم تُقتل بعد، وأكاد أجزم أنها لم ترَّ رجلاً ميتاً وهو يقف على رجليه، وأنها لا تعرف كيف يصبح الوجع إدماناً وكيف يتراقص الأطفال على أبواب جهنم، ثم إني أراهن على أنها لا تعلم أن هذا العالم يسير إلى نهايته، وأن الإنسانية على شفير الإفلاس الحتمي.

فردت عليه: اتركها تحلم بما تريد واجعلها دائماً خارج جهنم التي نحياها أنا وأنت.

ثم عاد يُعيد قراءة دراستها مرة ثانية وثالثة، وهو يحاول استخلاص الفوارق بين نظريتها ونظرية نعومي تشومسكي في النحو التوليدي.

****

إذا أردت أن تعرف صويلح معرفة صحيحة فعليك أن تسكن الكُشك، منه تكون معالمُها أكثر وضوحاً، منه تتعرى صويلح لِتُظهَر الندب التي بجسدها، تصبح كمومس استيقظت ذات صباح فوجدت مُستئجِر جسدها قد سرق ملابسها وهرب.

من الكُشك تظهر صويلح على حقيقتها، كمحارب من دون سلاح، كطفل جهم البنية ممتلئ القامة يتناوب الأطفال على ضربه من غير أن تكون له أم تدافع عنه، كبثينة إذ تؤمن ألا فائدة من محاولة بناء الأبراج هنا.

إذا أردت أن تعرف صويلح حق معرفتها، فاجلس إلى بثينة تنثرها أمامك كورق اللعب، تسوق لك أخبار أهلها كما يسوق الراعي الخراف، إذ لا أحد يَخبُرها ويعرفها كما تخبرها وتعرفها بثينة، بثينة التي طافت بها منذ تزوجها البندري الكبير وحتى الآن، فلن يمر عارفٌ بصويلح كما مرت عليها بثينة، ولن يعرفها أحد كما عرفتها هذه المرأة.

عرفتها بتاريخها، بجغرافيتها، بديموغرافيتها، باقتصادها وتُجارها، نقل لها زوجها يوماً ما علومها وأخبارها، وهي بدورها استكملت معرفتها بها من الكُشك.

يوماً ما وهي تجلس ذات الجلسة التي تعودتها مع القاسمي، ستحدثه عن صويلح من متسوليها حتى تجارها، وستركز له في حديثها عن جيران الكُشك الذين تعرفهم بالواحد.

كل ما يمكن أن تبصره العين من الكُشك ومحيطه كانت تعرفه بثينة: أسماء التجار ومصادر ثرواتهم، حجم تجارتهم وآليات عملهم، مَن المستقيم فيهم ومن المِعوَج، حتى مكاتب المحامين والأطباء وتجار العقارات والخدمات التجارية ومقار الشركات وغيرها.

تحدثت عن سكان الشقق المفروشة وغير المفروشة، جردتهم واحداً تلو الآخر: مِن الشريف والبسيط حتى أمراء الحرب الذين أخذوا وكالات التموين للجيش في حروبه من

النكبة مروراً بالنكسة حتى الكرامة، فالجيش يجب أن يمر من هنا أثناء مروره إلى الجبهة.

أمرُها غريب يبعث على الإستهجان والتساؤل، مما جعلها تتنبأ لها منذ قدومها بأنها لن تكون مجرد قادمة جديدة كبقية القادمين، شيء ما يجعلك لا ترتاح لها بمجرد رؤيتك لها، تراها ديكوراً خارجياً لشيء مخفي خلف قسمات وجهها، فتأخذك الريبة منها وتحسب مليون حساب لأي كلمة تصدر منك على مسمعها.

كانت قد حدثته فيما مضى وباقتضاب عن بهيجة، ولكنه كان حديثاً عابراً لَمَّحَت فيه إلى عُهرها، وتحدثت فيه عن فسقها وفُجورها، من أيام قدومها إلى صويلح بعد حرب سبعة وستين بستة أيام، واستئجارها العمارة التي تبعد عن الكُشك بست عمارات.

قالت له: أنا لا أخافها ولكن الناس يتصرفون معها على هذا النحو، فلا شيء منها يدعوك لمد جسورالثقة والصداقة تجاهها.

يظهر عليها المكر فلا يأتيك الانطباع الحسن تجاهها، أحضرت للعمارة أفخم أنواع الأثاث وأرقاها، لم أرَّ في حياتي بفخامته وأناقته، ولا حتى ذاك الأثاث الذي تبرع به الثري الخليجي لدار الأيتام، حيث كنتُ صغيرة أُقيم هناك أيام صغري وطفولتي.

كنا نعتقد أنا وبنات الدار أن ذاك الثري قد قام بتبرعه السخي هذا محبةً لعمل الخير ورغبة منه في التقرب إلى الله، ولكننا اكتشفنا أنه فعل ما فعل تقرباً لمديرة الدار الآنسة هيام، والتي ما كانت تنفك عن ضربنا وإهانتنا على اعتبار أن آدميتنا منقوصة.

ولا زلتُ أذكر كيف جلدتني يوماً بحزامٍ جلدي، وحبستني بغرفة مهجورة كُنّا نطلق عليها غرفة الفئران، عقاباً لي لأنني وقفت بوجهها حينما شتمتني من دون سبب.

أتعلم أني لا زلت أكرهها على الرغم من إنقضاء كل هذه السنوات، فالأطفال لا ينسونَّ أبدا، يختزنون بذاكرتهم كل مآسيهم ويحفظون عن ظهر قلب كُلِّ من أساء لهم.

بالعودة لبهيجة والحديث عنها، فإن بثينة تذكر ولا تنسى وجوه الفتيات الجميلات اللواتي أحضرتهنَّ معها بعد أن استكملت تجهيز البيت، تلكم الفتيات اللواتي كنّ يتحدثنَّ بلغات أجنبية لا تفهمها، يقولون إنها من لغات بلاد أوروبا.

سألت القاسمي: ألهذا الحد نساء أوروبا جميلات ؟

شيء ما يجعلك دائم المقارنة بين بيتها وبين قصور الخلفاء الفاجرين أيام الدولة العباسية، بل إنك تشعر أن عالم الجواري والعبيد لم ينته بعد، وخصوصاً حينما ترى تلك الحراسة الأمنية المشدَّدة عليها.

يؤمها كبار رجالات البلد ومن يعتبرون أنفسهم سادتها، أقلُّهم سفير ومدير بنك أو تاجر كبير، ناهيك عن الوزراء والجنرالات وولاة المحافظات ومدراء الجمارك والضرائب والفوسفات والبوتاس وبقية أركان الدولة.

كل رجالات الدولة رآهم الناس يدخلون ويخرجون من بيتها، تكهنوا بأسمائهم ووظائفهم، أما هي فقد كانت تعرفهم جميعاً من متابعتها الدائمة للصحف اليومية ورؤيتها لصورهم فيها.

وإن تجرأ أحد على هذه البهيجة وسألها عن بيتها، ما هي طبيعته من بين البيوت، كانت تقول بأنه صالون سياسي، وترمقه بعينيها لكي لا يعيد السؤال عليها مرة اخرى، وأغرب ما كان يُحير بثينة في هذه المرأة أنها كانت امرأة خدومة لكل من يقصدها في طلب ما، سواء كان في تسهيل معاملة أو في طلب وظيفة حكومية.

بثينة قالت للقاسمي: لكن أيُّ صالون وأيُّ دار للسياسة تدَّعيه هذه الضلالية مع هذا الكم من اللُّعب من النساء وصناديق المشروبات الروحية وأطباق المأكولات والحلويات، وأصوات المطربين والمطربات ؟ إذ لطالما شاهدت المغنيات اللواتي يظهرنَ كثيرا على التلفاز يدخلنَ إليه وكأنهنَّ في عرس أحدهم.

أراد أن يقول لها بأنه كان هناك عرس غير شرعي والعروس فيه كانت الوطن، كانوا يتخذون قراراتهم الخاصة بمصائرنا وهم سكارى، ثم يصادقون عليها في اليوم التالي في إحدى الوزارات الحكومية.

أكاد أجزم أنهم لم يكونوا خونة يوم الكرامة، فقد كانوا يغطون بالنوم وما استطاعوا الاستيقاظ لكثرة ما شربوا تلك الليلة، ولكنه اكتفى بالصمت.

وعلى الرغم من كل هذه الشبهات والإزعاجات التي كانت تصدر من بهيجة وبيتها، فإن أحداً ما كان يجرؤ على تقديم شكوى بحقها، خوفاً منها وممن معها وطمعاً في رضاها وتيسير معاملاتهم في مؤسسات الدولة ودوائرها.

ما كل هذ المتناقضات التي تعيشها صويلح، بثينة أم البطل رامي البندري منسية في الكُشك، وبهيجة أم الجواري تحدد وتصنع سياسة البلد.

يا للعار!

****

ابن بهيجة من طليقها الثاني كان يختلف عنها كلَّ الاختلاف، فليس بالضرورة أن يكون كل أبناء العاهرات قوّادين، وليس كل أبناء المرابين مرتشين، إذ قد يكون في حياة

بعضهم شيءآخر ينجذبون إليه ويعيشون لأجله، ومنهم من يحمل فكرة ورسالة يبتعد بهما كل البعد عن عالم البغاء المجتمعي الذي تعج به حياتهم المهزومة.

لما التقت به بعد حرب الكرامة بعيداً عن منزلها وبدا عليه الحزن والغضب، لأنه لم يشترك بتلك المعركة حيث تقطعت به كل سُبل الوصول إلى الجبهة، وخصوصاً أنّ الحكومة منعت الناس من الاقتراب من ساحة المعركة أو التوجه نحوها بعد انتهاء الحرب مباشرة، على اعتبار أنها منطقة عسكرية يمنع الاقتراب منها أو التصوير، وكأنها حادث سير أو جريمة قتل يحق لأجهزة الدولة أن تسمح بالاقتراب منها أو لا تسمح.

قال لأمه بأن الحنق يقتله من حرمانه هذا الشرف العظيم، إذ أنه يغبط كل الذين اشتركوا في الحرب وفي ذودهم عن البلد، فجُنت من كلامه وقالت له: أنت حمارٌ مثل أبيك، ما لك والحرب حيث الموت ؟

كُن كأمك ولا تجعل من نفسك فأراً صغيراً ترنحه المصائب والأحزان، كُن دائماً ككل المدن العربية يقتُلهنّ العهر وتُغيِّر الوزراء والرؤساء والضباط عليهنّ في الفراش الواحد، فيجلبونَّ لهنّ الأمراض والأوجاع، ومع هذا يرفعنّ رؤسهنّ في المؤتمرات والندوات والاحتفالات شامخات كخضراوات الدِّمن.

حاول ألاّ تقتل نفسك أبدا، بَيعُها أفضل، المتاجرة فيها

يعطيك أرباحاً وفيرة، صحيح أنها كاسدة لا تساوي شيئاً حيث المعروض منها كثير في الأسواق والمزادات ولكنها مع هذا تُباع، الفكراليساري الذي يحمله أبوك لم يجلب لي الدفء ولا الطعام يوم كنت مسجونة تحت سقف بيته.

وخذها مني وصية إن كنت تقبل مني الوصايا ولا تنساها أبدا: أن تبيع شيئاً خير من أن تتلفه، كروحك التي أردت أن تتلفها في الحرب، فإن تعذرعليك البيع فابقها وادخرها لسنوات تشح فيها النفوس في الأسواق ويقل معها المعروض من الأجساد في المزادات، فتجد لنفسك سوقاً ترمي فيه بضاعتك وإني لفي شك من كساد تجارة العبيد والرقيق.

فلما قص ما قالته أمه لأبيه في الليل حينما التقيا على العشاء، قال له: هذه سياسة من يرفعون الأرجل، أما نحن فلنا رؤس نرفعها ولا نضعها للمتاجرة في مزادات الرخص التي تعرفها أمك، أيُّ امرأة حمقاء هذه التي ترى في الشهادة إتلافاً للأرواح ؟

فسأله ابنه: وهل لرؤسنا ثمن في مدينتنا الفجة هذه ؟ فصمت طويلاً يحاول الا يجيب، لأن جوابه سيكون جارحاً ولا يدري كيف سيفهمه ولده، وبقي على صمته إلى أن تلعثم لسانه بأسنانه العلويات ونطق يقول: ثمن رؤسنا حبة تمر عفنه.

فلم يتركه الطفل الذي شبّ حديثاً وسأله: وأين يكمن

العفن يا أبتي ؟ أهو في رؤسنا أم في حبة التمر ؟ فقال له: العفن يكمن في قلب صويلح.

كنانة سألت القاسمي: لماذا لا تجيب عن الكثير من أسئلتي وتكتفي بالصمت ؟ فقال لها: لأننا في زمن الأسئلة المُعَلَّقة، فسألته: وأين عُلِّقت ؟ فنظر إلى الشمس وقال لها: هناك بعيداً خلف الشمس وخلف النور.

إن كثرة الأسئلة التي لا تجد لها أجوبة مقنعة هي ما تجعلنا نستاء كثيراً ممن نحب، حتى لو كان هذا المحبوب وطناً.

دُهلت حينما أردف يقول: شيء ما يجعل الحب كجنين مشوه في بلادنا، يجعل الحياة صعبة وقاسية أيضا، إذ لطالما آمنتُ أن الإخلاص في الحب يعادل المسؤلية في الحريات والإيمان في الأديان، غير أن الإخلاص والمسؤولية والايمان تتطلب وطناً ممتلئاً بالحيوية والعدل والمساوة، وأنا لا أشعر بأن لي وطناً من الأساس، لقد فقدت شعوري به منذ رأيت رجاله على حقيقتهم.

ما كان جديداً في حديثه هذه المرة ليس في درجة الإحباط المستفحلة التي تعودتها منه، ولكن كان في فقدانه الشعور بالوطن، ولكَم هي مصيبة عظيمة أن تفقد شعورك بوطنك، أن لا تعود تراه، تتقاطع معه ولا تلتقيه.

سألته مذهولة: مالذي تخفيه عني ؟ ماذا جرى معك في الحرب وماذا شاهدت ؟ ألم تنتصروا ؟

فأشار لها بالنفي.

وضعت عينيها بعينيه وأردفت تسأله: هل ما يقوله أبو النور لطلبته على المدرجات صحيحاً من أنكم لم تنتصروا في تلك الحرب، ولكن الأعداء تعبوا في ذاك اليوم من مناكفات الجنود المحاربين من دون أوامر القيادات العليا فتركوا الحرب وعادوا بجيشهم خلف النهر؟

فأشعل سيجارة وقال لها: أسئلتك هذه ليست من نوع الاسئلة المعلقة، ولكنها من نوع الاسئلة التي نخجل من الإجابة عليها يا كنانة.

حمقاءٌ هي يوم ظنت أنها المسيح ورسالتها تقوم على تبرئته من أسقامه وأمراضه، أم هوالحلم الذي يجعلنا نتخيل ونتوهم أشياء لا يمكن لها أن تحدث.

أيٌ حماقة تلك التي تدفع الانسان للإعتقاد بأنه قديس يستطيع إصلاح الكون، يستطيع إصلاح الآخرين ؟

لماذا نصر على آن لا نعترف بأننا مجرد كائنات حية بهلوانية تؤدي وظائف مسرحية على خشبات المسارح ؟

لم تكن تعلم الكثير، لم تكن تريد إلا القليل، القليل من بقائه إلى جانبها والكثير من حبه، وكم سَيَسود وجهها من

الصدمة حينما يخبرها بأن الأبطال انهزموا بعد أن صدوا عدوهم وكسروه.

الهزيمة هي أن يتم مصادرة شيء يستحق التضحية من قبلك، ولا يتوقف الأمر عند حدود الأشياء المادية وإنما يتعداه إلى ما هو أشد إيلاماً من ذلك، حينما يتعلق الأمر بالروح، بالقلب، بالإحساس.

الهزيمة هي أن تحمل الحزن في داخلك، فيحتل أركانك الداخلية ويُحيل قلبك إلى خراب مُنكِّساً كلَّ راياتك من الداخل، مُحرقاً كل آمالك.

قالت له: غيِّر مكان نزاعك عَلّ الحظ يلاقيك فتنتصر، فرد والهزيمة تخيم بأرجاء رئتيه إذ يَشتَمُّها: من ينهزم بموقعة فإنه أبداً لا ينتصر بأخرى، يستبدلها ليصنع وهماً آخر توارثته المدينة من حقب قديمة وزرعته بصدره، وهماً يقول بأن الحياة جولات، وعليه لزاماً أن يعود إلى تلك الواقعة أو تلك الحادثة فيحاول فيها مرة أخرى لعَلّ حالته تتبدل وتتغير.

فقالت له: إرجع إذن إلى موقعتك تلك، وحاول فيها مرة أخرى عسى أن تنتصر، فمضى إلى رِجلِ بثينة يضع عليها رأسه وينام حتى الصباح.

****

صباحات صويلح ليست جميلة بالمطلق، ليس فيها الندى يلامس وجوه العاشقين ولا فيها العليل يدغدغ قلوب المحبين، ليس فيها ديكة تصيح ولا قطط تُحسن المواء.

صويلح مدينة جافة لا بحر فيها ولا أشجار، لا تتقن صباحات المدن الجميلة، ليس فيها إلا بهيجة المتشبهة بالملوك، تتفقد الرجال فلا ترى رجل الأمن، تتساءل إن كان من الغائبين وتهدد بهجره وحرمانه من نعيمها ودخول جنانها أو ليأتينها بسلطان عظيم.

فمكث غير بعيدٍ، قال: قد أحطت بما لم تحيطي به، وجئتك من الشارع بنبأ عظيم، إني وجدت امرأة تضع كُشكها قبالة بيتك وتُلمِّح عليك بكلامٍ وخيم.

قالت: يا أيها الملأ من يهدم لي كُشكها ؟ قال الحكومي: أنا أهدمه لك قبل أن تقومي من مقامك، وإني عليه لقوي أمين، ثم قال الذي عنده علمٌ من المخابرات: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

فتبمست ضاحكة من قولهم وقالت: ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى جميلاتي، وأن أعمل صالحاً يرضاه رجال الأمن والسياسة في بلدي.

هي الحروب ما تلبث أن تنتهي حتى تبدأ من جديد، تصفي أطرافها ولاعبيها وتجعل الملعب لفريق واحد دون آخر.

النصر يحتاج لسُكرٍ وأوان السُكر على من شاركوا في الكرامة قد حان.

لك الله يا وطني كم أنت لعبة، تتقاذفك النساء بعد أن مات فيك الرجال.

لئن كانت النساء هنَّ من يلدنَ الرجال، فإن الحروب هي من تلد تلك النساء، كلٌّ بحسب نتيجتها، ذاك أن حرب سبعة وستين الخاسرة أنجبت بهيجة، وحرب الكرامة المنتصرة أنجبت بثينة.

وجاء من أقصى المدينة الطفل المتسول يسعى،قال: يا قوم، ابتعدوا عمن لا يسألكم أوسمة ولا نياشين، ابتعدوا عمن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون، عمن تركوا المدينة لكم واكتفوا بهذا الكُشك، ابتعدوا وإني لكم من الناصحين.

رأى ذاك الطفل بأم عينيه القيامة إذ تقوم، فظن أن صويلح تتعرض لغزاة الفضاء الذين سمع عنهم من أطفال الأغنياء، رأى الآليات والجرافات والعمال والمهندسين جميعهم وقد تحركوا باتجاه الكُشك يغلقون الطرق المؤدية إليه، فذهب إليهم يعرض عليهم رِشوةً عظيمة، بحيث يعطيهم كل الدراهم التي تسولها في ذلك اليوم ويتركوا الكُشك على حاله.

و ما كان أحد من المارة ولا المتجمهرين من بعيد يجرؤ على التدخل بما يجري، وظن بعضهم أن الدولة بصدد خوض حرب جديدة من إحدى حروبها المسرحية المحسومة سلفا.

نادت واستغاثت بثينة الصالح بالنشامى علّهم ينتصرون لكُشكها، ليقفوا معها ويصدوا هؤلاء الغزاة عنها وعن أعشابها، خطبت في الناس قائلة: هذا الكُشك بقاياكم، إرثكم، رمزكم، كرامتكم، إن هُدِم اليوم فلا أضمن لكم متى ستقوم قيامتكم، قالها يوشع من قبلُ لرامي، وها أنا ذا أعيدها عليكم اليوم.

فصاحت بها بهيجة من فوق ثلاثة أدوار: فَليدعُ ناديه سأدعو الزبانيه، خذوها فاهدموا كُشكها ثم الأرض سووها.

ركض القاسمي يذود عن الكُشك بوجه رئيس البلدية، تأمل أن يظهر يوشع والمسيح وأبوعبيدة من جديد، ولكن هؤلاء الذين توسم بقدومهم لا يأتون إلا عند النهر، والنهر بعيد من هنا.

ركض يحمل قلق السنين والوجود في داخله، يحمل فاجعة ستصيبه وترده ألف خطوة للوراء.

في المرة السابقة كنت أحمي رامي من الخلف، أمَّا اليوم فسأحميه من الأمام، هكذا كان يقول لنفسه، ولكن ماذا عساه يفعل أمام دولة بأكملها ؟

دولةٌ حُسِمَت كلُّ مشاكلها، وما بقي لها من مشاكل ومنغصات سوى هذا الكُشك، الذي إن هدمته فستستقم كل أمورها إلى الأبد، فيا هذه البلاد كم عاث بك الفساد والوهم.

حملوه كما لو أنهم يحملون خروفا، ظل طوال حملهم له يصرخ ويصيح ويشتم ويبصق باتجاه بهيجة.

حاولت بثينة أن تفك نفسها منهم، أن تبعدهم عنها، زمجرت مثل الأسود وهم يبعدونها عن جنتها، صاحت بهم مجلجلة بكل أرجاء صويلح: أنا أم البطل رامي البندري، أنا أم الرئيس الجنرال، أنا أم الرجل الذي حماكم يوماً وطهر مدينتكم قبل أن تُدنس، والذي لولاه لما كنتم أنتم هنا اليوم .

أنا من ضحى ولدها بحياته حتى لا يُصاب هذا الكُشك بسوء أو مهانة، أوَ تأتي الأذية منكم أنتم يا ورثة الآنسة هيام في دار الأيتام ؟

لَكَم هي كثيرة تلك الأمم التي لا تعرف أعداءها على وجه الحقيقة يا بثينة، لَكَم هي كثيرة.

هُدِم الكُشك على الارض بما احتوى من الأعشاب والصورة المعلقة على أحد جدرانه، سَوُّوه برصيف الشارع بلا رحمة ولا شفقة أو وخزة ضمير، قالت لهم بثينة: مساحة كُشكي ستة أمتار مربعة، أصارت هذه الأمتار القليلة مشكلتكم ؟ أصارت هذه الأمتار هي أرضكم المحتلة التي لن تستردوها يوما ؟ ما كان يضيركم لو تركتموه من دون هدم ؟ أما يكفيكم عمري الذي هدمتموه ؟

هذا الكُشك تاريخ بطني، أحتى البطون تهدمون تاريخها المُشيَّد بالقرب من قلوبها ؟ دعوني وإياه نحيا كامرأة وحطامها، كنخلة عقيمة وظلالها، أو حتى فاعتبروه جزءاً من أراضينا التي لم ولن تستردوها يوماً ولا حتى بأحلامكم.

اعتبروه أرضاً محتلة كباقي تلك الأراضي التي ضحيتم بها من القدس إلى مليلية، ولكن لا تعتبروني جارية من جواري بهيجة.

منذ دهرٍ طويل والفقراء ليس لهم صوت يُسمع في بلادنا يابثينة، فهلا ادخرتي صوتك ومتِّ مع الكُشك صامتة من غير أن تزعجك قوافل المعزيين، مات صوتك فلا عليك إن لم ينصتوا لك وتظاهروا بأنهم لا يعرفون الحقائق .

اليوم يوم الهدم ولا من سبيل إلى كلِّ الكلام الذي يغص بحلوقنا، فكل الذي سيقال قيل اليوم، يوم الهدم وكل البلد تهدمت من قبل يومنا هذا، حتى أرواح الناس تهدمت هنا بعدما هُدِمَ الأمل فيها.

أنهوا عملهم ثم انسحبوا مظفرين بما أنجزوه، عادوا يفتحون الشارع بعدما أحكموا إغلاقه، ثم تلاشوا وكأنهم لم يكونوا هنا أصلا، كان قدومهم ورواحهم كما الأشباح، أتوا بغفلة وانصرفوا بغفلة، وهكذا هي الأشياء الجميلة تتبخر بغفلة.

شيء كان كما الحلم كما الكابوس، ما أقسى أن تفقد أملك بوصول مغيث أو سند لك في مدينة ما عاد أهلها يبتسمون.

حملتها اللحظات التي عاشتها الآن على الاعتقاد بأنها كانت تتوهم نائمة وأنها ستستيقظ بعد قليل وترى الكُشك شامخاً كما كان.

لكنها الحقيقة يا بثينة، حقيقة اغتيال الكُشك، حقيقة النهاية التي تتأجل دوماً وتأتي بغتة من دون مقدمات.

عقلها البسيط الصغير لم يستوعب أنَّ هكذا مدينة يمكن أن يصدر عنها هكذا حدث، لم يستوعب أنَّ هذه المدينة تتعامل معها كامرأة خَرِفة، وليس كما كانت تظن بأنها تبجلها لمجرد أنها أم شهيد.

أيا امرأةً غطت الغشاوة عينيها، وما علمت أن هذه المدن نسيت شهداءها فكيف بها لا تنسى ذويهم ؟

أيا امرأةً، ما جرى كان حقيقية ولا حقيقة سواه، ما جرى كان أقل ما يمكن أن تفعله بنا مدننا يا أم الشهيد أنت، أدَاعَبك الأمل خلسة يا مسكينة من أنك ستموتين ميتة عادية في مدينة ما هي بعادية.

ميزتنا في أوطاننا أننا لا نستوعب الواقع لضخامة كارثيته.

يا الله، أهناك مخلوقات تخاف الأكشاك كمثلنا ؟ أهناك أمة يرعبها بيع الأعشاب غير أمتنا؟ أهناك مدينة تغتال الحب والقُبَل إلا مدينتنا ؟!

هجمت بثينة نحو الكُشك تُنقبه لتَنيخ كإبل قبل الذبح، شيءٌ كونيٌ غامضٌ ضاعف قوتها لتدفع كل هذه القطع المتهالكة قطعةً قطعةً، تنقبه باحثة عن الصورة التي ما انفكت تضعها بين أهداب عيونها، عن الصورة التي تعاملت معها وكأنها كنزها، حرستها كما لو أنها جنيٌّ من بلاد فارس، ليس له وظيفة أو رسالة في هذه الدنيا إلا حراسة الدفائن كما هي معتقدات أهل الشرق.

وفي غمرة فرحها باستعادتها سالمة متراصة غير ممزقة ولا تالفة، خاطبت الصورة قائلة لمن فيها: تلقفك المسيح وأنت تموت، وها أنا ذا أتلقفك وأنا أموت مثلك.

كلانا قتلنا الوطن وإن تعددت وجوه القناصين فيه، وكلانا سنكتب وصيتنا للريح تنثرها على قبورنا، فلا يراها أحد ولا يسمع بنا أحد.

كنَّا وافدين غريبين غيرَ مُرحبٍ بنا أنا وأبوك، وجئت أنت ثالثنا لتكمل مسلسل الغربة، رفضتنا المدينة وما احتضنتنا لا ولا أحبتنا، قتلتنا من غير جُرمٍ فعلناه.

في خضم هيجانها وانفعالاتها وفقدانها لوعيها وسيطرتها

على تصرفاتها، استدارت للخلف فتعثرت ثم هوت، فتساءل الناس: ما بال هذه العائلة تموت على هذا النحو الفجائعي ؟

سقطت على الركام سقوطاً مدوِّيا، سقطت وما كتب لها أن تقوم أو تنهض بعد تلك السقطة أبداً، اخترقها وتد الكُشك المنتصب من بين الركام ليجتاز جسدها من ظهرها حتى بطنها، وأيٌّ بطنٍ هو بطنها المقدس ؟! بطن حمل رامي البندري، وهل لرامي البندري من شبيه ؟ وهل لبطنها هي ذاتها من شبيه ؟

القاسمي وصلها زحفاً، إذ أُصيبت رجله المصابة من أيام الكرامة بالخدر المزمن، لم يستطع أن يمشي عليها فجرَّها خلفه صوب بثينة والكُشك.

وصلها بوصول كنانة التي علمت بما يجري، بعد أن اتصل بها ابن الذوات ينقل لها شماتته بما يجري ويكيدها بالخبر، فتركت عملها وجاءت تعاضد بثينة في الذي تلقاه.

وصلها القاسمي بخطوات مهزوزة خائفة وجلة مترددة، ولما دنا منها ورفع رأسها على فخذه شبه المشلولة وبدأ يمسح بيده على جبهتها، رأى بياض عينيها وهو يتحول إلى اصفرار، قالت له من غير أن تتلعثم أو تتقطع في كلامها:

The Arabs did it. They actually won.

فأخبرها أن المقالة كانت من صنع خياله، وأنه لا توجد صحيفة أجنبية من الأساس، وأنه افتعل هذه المقالة حتى يرضيها

ويدخل السرور إلى قلبها، فأشارت له برأسها تعلمه بأنها كانت تعي وتعرف تمام المعرفة بأمر اختلاقه المقالة.

وكأنها كانت تريد أن تعيش هذه الكذبة الجميلة.

حتى الأحلام الكاذبة لا تريدنا المدينة أن نحلمها، فأي عمل قبيح فعلناه بحقها حتى تستكثر علينا الفرح الكاذب ؟

ثم رفعت يدها تمسح دموعه وتوصيه بأن لا يبكي بعد اليوم، قالت له: عِدني ألا تبكي، فالبكاء لا يليق بمن هم مثلك، فقال لها وهو يكاد يعجل بموتها من شدة إطباق مسكته عليها: ابقي وأعدك ألا أبكي، أما إن رحلت فإني بحلٍ من أي وعد أطلقه تجاهك.

ثم نظرت إلى كنانة الممسكة بيديها والمرتجفة حَدَّ الموت وهي تقول: ارعيه جيداً يا كنانة، كوني له رامي وبثينة ولا تتركيه أبدا.

احتضنت الصورة وأسلمت روحها للسماء، تماماً وبنفس الطريقة والهيئة التي ودع فيها ولدها الحياة.

فصاح الرجل الذي سيموت بعدها بوقت ليس ببعيد: هذا ليس وقت الموت فلا تموتي، هذا ليس وقت الرحيل فلا ترحلي، لا تغادريني ليس لي أمٌ سواك، ليس لي حضنٌ غير حضنك، لا شيء أراهن عليه بعدك، غدي القاتم لونه لن يكون جميلاً من دونك.

يا أنتِ ابقي هنا وسأنجب لك طفلاً وأسميه رامي وأعطيك إياه من دون مقابل، على أن أكون وإياه خُداماً بمعبدك ونعيد ترميم الكُشك من جديد، هذا الكُشك الذي هدموا أركانه في الطرقات وأبقوه شامخاً كالقصور في قلوبنا.

ما أصعب أن ترى أمك تقتل أمامك، فحينما يقتلون أباك أو ابنك فإنك تفكر بالثأر كحل أولي أمامك، أما حينما يتعلق الأمر بمقتل أمك، فإنك لا تجدُ أمامك بديلاً عن التفكير في الانتحار.

قالت له كنانة: دعها ترقد بسلام، فبعض الناس موتهم أرحم لهم من حياتهم، لقد عاشت طويلاً وقاست كثيراً منذ التقتك أول مرة وأخبرتها أن ولدها لن يعود إليها، قالتها وهي تمد يديها للدم المجبول بغبار الكُشك ثم تلعقه بلسانها هامسة بأذن الميتة التي تفترش دمها أمامها: يا ذاك الوطن الداكن قلبه متى ترحل عنّا وتتركنا لفضاءات نفتحها بلهيب أرواحنا المثقلة من غبارك ؟

بكاها كل المتفرجين من الطفل المتسول الذي لَمْلَمَ أعشاب بثينة وأخذ يبيعها في المدينة ليتحول بهذه الحالة من التسول إلى البيع بالتجوال، إلى أبي أحمد النيجيري، الذي أطلق رقصة السامبا من جسده، فظنته بهيجة يرقص فرحاً بالنصر وبهدم الكُشك، فقالت لجواريها: إن الأفارقة يرقصون هذه

الرقصة في المناسبات السعيدة فقط، ولبعض الناس طرق غريبة في التعبير عن الفرح.

ولبعض الناس يا أم الجواري إصرار غريب على فهم الأشياء بسفالة لا يجاريهم فيها سفيه أو مختل.

أما كنانة فقد عرفت أن هذه الرقصة ما هي الا رقصة تأبين على مدينة تنتحر، وعلى سيدة حملت معها ذاكرتها فقتلتها.

لسوف يقول أبو أحمد النيجيري: إن هذه المدينة هي مدينة الوحوش والكلاب السائبة والأبناء الضالين، مدينة الآهات واللعنات والسباب، مدينة الويلات والأزمات والنعرات، ولسوف ينعتها بالكفر والإجرام والإلحاد.

ولسوف يناديها في كلِّ ليلٍ يخلو من رجال الأمن المتجولين أمام دكانه: أيا مدينة المرابين والرهبان الدجالين والأئمة المأجورين والشيوخ الوهميين، يا مدينة الشُعاع الكاذب والفجر المغشوش والطفولة المسروقة والحب المحشي بالجوع والخوف والوهم.

ولسوف يهمس بأذن زبائنه أن صويلح مدينة ترتع فيها الكوابيس القادمة من الشمال والجنوب والضفة الغربية والفدائيين والحكومة، كابوسٌ لا يراه كل من رأى جبل نبو ورامي البندري وبثينة التي تضرجت بالدماء والقتل والفتك والحلم المسلوب.

كابوسٌ ملعونٌ متوحشٌ لاهثٌ نحو القتل والتدمير والتحطيم والموت والفتك وكل شيء لا ترضاه الأرواح التائهة الحائرة الخائفة المهزومة المتألمة.

ولسوف يصرخ مع ابنه في ركن دكانه البعيد: يا مدينة الوحدة والليل والعزلة والصمت المرعب والخناجر الملتوية، يا مدينة الخوف من الخوف، يا مدينة العبيد والرقيق.

ولسوف يوصي ولده ألا يرحل من دكانه حتى لو رَحَّلُوه عنه غصبا، وحتى لو كلفه الأمر أن يموت على حُطام دكانه كما ماتت بثينة.

ولسوف يستبدل رقصة "السامبا" بدبكة "الدِّحية" في كل مساء من ذلك اليوم الذي شهد فيه مجازر هذه المدينة بحق أهلها.

ولسوف يغير اسم دكانه ليصبح: دكان البهجة لصاحبه أبو أحمد النيجيري الذي لم يشارك ولده بحرب الكرامة.

المدن كالنساء لها رجال لا تنساهم من ذاكرتها، ولبعضها أيام لا تُمحى من أجندتها، وهذا يومٌ ستعيش صويلح طويلاً حتى تطوي صفحته، يومٌ ليس من أيامها، عصيٌّ عليها، قاهرٌ لها متجبرٌ على ابنائها، يوم أُسدِل الستار فيه على فرحٍ مُفتَرَضٍ انتظره الناس ولم يأتِ.

يومٌ سيجعل المسافات تتسع بيننا وبين أنفسنا، وسيجعلنا

نتذكر أن الأيام لم تعطنا حباً بمقاسات قلوبنا ؟ ألأن مقاسات أرواحنا وقلوبنا كانت أكبر من مدننا أم لأننا جئنا في الزمن الخطأ؟ سألت كنانة نفسها: هل كنا أكبر من أسرنا أم أن وطننا كان أضعف من تجاره ؟

نحن أناسٌ نقبل من الفرح بساطته وعفويته وحجمه الصغير، حتى لو كان بحجم كسرة خبز، وحتى لو كان بحجم قلوبنا الصغيره، نُهرول نحو الفرح فلا نمسك إلا الوجع، نتقبل منه بقاء الأحبة وهيهات للأحبة أن يبقوا في يوم كهذا اليوم الذي لن يكبُرَالأطفال بعده في صويلح.

إنه يوم الأحبة إذ يترجلون عن صهوة قلوبنا من غير أن ينذرونا، يغافلوننا بالرحيل خِلسة فيهجروننا مع الظهيرة وتحت الشمس، أترى هل كانوا أنفسهم يعرفون أنهم لن يعودوا ؟ أترى هل كانت قلوبهم حقائب نثروا موجداتها يوماً ثم لملموها وكأن شيئاً لم يكن ؟!

الموت شيء جميل، ولكن بؤسه وشقاءه يكون بموعده المباغت، فلو كنَّا نعرف موعده لَمَا تعذبنا.

مشكلتنا معه أننا لا نصنعه بأيدينا ويحرمنا من صناعة النهاية التي نريدها، يأتي وفي مخيلتنا أنه لا زال لدينا الكثير من الأشياء لنفعلها، فَلِمَّ تباطأنا عنها كل هذا التباطؤ ؟

الفرق بيننا وبين المنتحرين أننا لازلنا ننتظر الغد ونراه

بعيونٍ متفاوتةٍ، أما هم فقد تصالحوا مع الموت بعدما وجدوا فيه ملاذاً يستجيرون به من شيء صار يفتك بهم، يأكلُ عيونهم التي ما عادت تقدر على رؤية الشمس.

نحن لا نقلق من الموت بحد ذاته ولكننا نصاب بالقلق على مصير أشياء نعتقد أنها تحتاجنا، كطفلنا الصغير الذي لا ندري ماذا سيحل به بعد رحيلنا، أو كمشروعٍ علميٍّ بدأناه ولا ندري أي نهاية تنتظره.

يأخذنا الإندهاش من المنتحرين كيف أقدموا على فعلتهم تلك، ويأخذهم الإندهاش منّا كيف نمضي مع الحياة نعدُّ الأيام يوماً بعد يوم ونحن نعرف تمام المعرفة أنها لن تعطينا ما نريد.

للناس مأتم واحد ولكنانة العمانية مآتم، للناس جثة واحدة ولكنانة جثتان وثلاثة تحملها، كل شيء تبخر من أمامها على حين غِرة، كل شيء ضاع فجأة، آمنت ساعتها بأنْ لا جدوى من انتظار ميتٍ تأخر موعده مع التأبين، فالأشياء التي تعلقت بها وصارت تشكل حياتها دُكّت مرة واحدة، آمنت بعد فوات الأوان ألا تجمع أشياءها الحبيبات في سلة واحدة.

كانت تعلم أنها ستفقد أحدهم ولكنها أبداً لم تكن تعلم أن مصيبتها ستكون ثلاثية الأبعاد، المرأة التي كانت ترى فيها وطنها، والكُشك الذي كان ملاذها والشاب الذي ادخرته لمستقبلها، أيٌّ مدينة بائسة تلك التي تقوى على فعل كل هذا.

الكُشك صار رُكاماً، المرأة التي رعته وَدَّعت صويلح وداعاً نهائياً وما عاد بالإمكان عودتها، والشاب الذي كان يقف بينها وبين بثينة، بل بين بثينة والموت ذاته، فَقَدَ عقله كما فقدت صاحبة الكُشك حياتها.

ليته مات معها، لكان أرحم عليها مما أصابه وحلَّ به، الصدمة كانت كبيرة عليه فلم يكن يعلم أن الإجرام في هذه المدن لا يحده المنطق ولا المعقول، آمن أنه مات كثيراً على امتداد حياته من غير أن يعلم، فقرر أن يواجه المدينة والموت بالجنون.

آمن بأن مكوثه هنا كان بلا جدوى، أهدر عمره من غير أن يشعر، فجأة وجد نفسه قد هرِم، قد عَمَّر أكثر مما ينبغي، أصبح كخيول الإنجليز الهرمة التي لاتجد أمامها مفراً من الإنصياع لقرار مالكيها في قتلها والتخلص منها .

الشوق لرجل يشبهها خدعها منذ التقته، قال لها: ستمضين مع هذا الرجل ما تبقى لك من عمر، لم يُحدِّثها عن جنة موعودة بقربه، ولكنه حدَّثها عن رجل لا يخون، عن رجل لا يلعب الورق حتى منتصف الليل، ولا يأتيها وقد انفق دخله الشهري على عشيقةٍ لقيَّها في شارع "الجاردنز" بعد منتصف الليل إذ كان مخمورا.

طالبها أن تتحلي بالصبر قليلاً، بعدما أوهمها بأن بعض الفرح الذي يلاقيه على شفاهها سيعيد ترميم ما أتلفه الزمان من

قلبه، وسيستأنف عمره راضياً معها.

لكنها الأحلام يا ابنة صويلح الغريبة، الأحلام وأضغاثها التي لا تلبث أن تصور لنا أشياء لن تكون ولن تتحقق، لن تُبتَلّ من ثلوج صويلح، أشياء كانت برسم الضياع منذ البداية، وهذه المدينة ما ساقتنا لنتعثر بأصحابها إلا لنكون شهوداً على بشاعة فتكها بهم.

نحن من حمَّلنا العشاق الغرباء أحلاماً هم ما وعدونا بها، حلمنا بها وحلمنا بأنهم وعدونا بها، في وقت ما كانوا هم يحلمون إلا بالرجوع من غربتهم، كل شيء حولهم كان برسم البيع حتى لو كنّا نحن الذين أحببناهم.

آمنت متأخرة بأنه لا يوجد رجل يتسلل إلى قلب امرأة من غير أن تدري، لا توجد امرأة تجد نفسها هكذا وبدون سابق انذار متولعة برجل هائمة به من دون تخطيط أو تدبير، تقف عند ضفاف العمر الغارق في الكهولة، تقول كحمقاء بلهاء: أحببته من دون دراية مني، ووجدتني منساقة إليه في غفلة مني.

وتنسى أن الرجل لا يستطيع الدخول من مجرد ثغر على الأطراف، من مجرد نافذة تُركِت مفتوحة سهواً في ليالي البرد.

الثغور خُلِقَت للأعداء يدخلون منها إلى جيوب الوطن، للصوص يمارسون عمليات سطوهم النهاري على خزينة الوطن، للمخبرين إذ يتسقطون الكلمات من أفواه المناضلين، أما

الرجل فيدخل والأبواب مُشرَّعة على مصراعيها، طوابيرٌ من التهليلات والترحيبات تكون بانتظار دخوله، رجاءٌ يشبه التوسل ليعبر إلى الداخل ويغلق الباب خلفه.

نعم، جُن الرجل.

اختار المضي قدماً من غير عقل، من غير آداة للتفكير بالأشياء، من غير أن يتحمل مسؤولية شيء ما، غافل الزمن قبل أن يغافله فلم يعطه فرصة ليتآكل عقله وتهترئ مداركه، خار كما الجمال مرة واحدة وأعاد عقله لربه ظناً منه أنه سيرتاح لو فعل هذا.

وكأنه كان يحدث الله ويقول له: هذه الحياة لم تعد تعجبني ولم أعد بقادرٍ على احتمالها، في وقت يصر ملائكتك على تجاهلي ويرفضون انتزاع روحي وإعادتها إلى السماء، وعليه فإني أرد إليك ما وهبت، ولتُسقِط عني أنت يا إلاهي بعد ذلك ما أوجبت.

ذهبت إلى حبيبها الأول ابن الذوات الذي صار يتشبه بالرجال، فظن أن الرجولة معناها أن يحمل السيجار بيده، أو أن يكون فحلاً على أريكة مكتبه، قالت له: لقد كنتَ على حق منذ البداية، أنت من كان يعرف كيف تجري الأمور ومن أين تُؤكَل الكتف، في وقتٍ كنَّا نعيش فيه نحن بأوهامنا.

هذه المدينة لكم وأنتم من تديرونها وتُقلِّبونها بالطريقة

التي تريدون،وتضاجعونها على الهيئة التي ترغبون.

فيما بعد، ومتأخرين بنحو عمر، اكتشفنا بأنّا ما كنا شركاء لكم في المدينة، المدينة كلها كانت لكم من قبل أن تُخلقوا ونخلق معكم، كنتم السادة وكنّا مجرد عبيد نعتاش بالطريقة التي تختارونها وترسمونها لنا، واكتشفنا ويا ويل ما اكتشفنا بأن أمهاتنا ما ولدننا أحراراً كما أوهمنا ابن الخطاب في عصر لا يشبه عصرنا.

الحريةُ لها شكلٌ آخرَ غير هذا الشكل الذي نحن عليه، الحريةُ حب، الحريةُ كلمة ورسالة نبيلة، ولا من نبيلٍ في هذه المدينة يُرى بعد سقوط الوطن والمقاتل والقلعة التي كنّا نأوي إليها.

ليتك يا ابن الذوات خدعتني ومثلت عليَّ الرجولة في يوم الكرامة، فأبقيتني معك وأبعدتني عن بثينة وعلي والكُشك.

خَلَت المدينة لك ولبهيجة فارتعوا ما استطعتم فيها، إنها لكم وأنتم سادتها.

ضحك منها واقترب يقول: كم أنتم جهلة تصلون إلى الأشياء متأخرين، وترونها من زاويتكم الضيقة فقط، منذ البدء أبيتم ألا تفهموا أنّا أرباب هذه المدينة، ولو أردنا أن نعيد لصاحبك عقله لفعلنا.

فردت عليه قائلة: أتعلم يا أنت ؟ كلما رأيتك ورأيت من هم على شاكلتك تيقنت وجزمت بأن هذه المدينة لا تحتاج للحب والعشق والعمل والخطط التنموية المدروسة والمحبوكة من الألف إلى الياء، بقدر ما تحتاج لأطباء بيطريين يعالجونها من هذا الكم الهائل من البغال الذين نقابلهم كل يوم، والذين لا يحسنون سوى الجعير والرفس مثلك ومثل بهيجة.

سارت قصة بثينة وحادثة موتها في صويلح وكأن المدينة ليس لها حديث سواها، وانتشرت أخبارها في كل أرجاء عمان وكأنها أول امرأة تموت مقهورة في بلادنا، ومع شيء من التبهير والتعظيم زاد الناس على شخصيتها حتى جعلوها شخصية أسطورية لها هالتها وقداستها، يتداولونها كُلٌّ بحسب اهتماماته وأوجاعه وانتكاساته.

صاروا يقصّون عنها الأقاصيص والحكايات، منهم من قال إن روحها تحررت من جسدها وصارت تطوف كل يوم في الأرجاء والأنحاء بغية تقديم العون والمساعدة للناس، فتخيلها الأطفال وكأنها بابا نويل.

ومنهم من قال إنه شاهدها تُرضِع وَلَدَه الصغير وهو نائم في الليل بعدما جفّ صدر زوجته من الحليب، وقالت سيدة مُسنّة إنها شاهدتها تقف حائلاً بين سيارتين كانتا على وشك التصادم، وذكرت شابة متزوجة من رجلٍ في الخمسين من عمره

أنها بثّت العزم والروح في حياة زوجها فصار يغزو فراشها في الليلة أكثرمن مرة.

من جانبه قال الفدائي مجدي السالم إن بثينة هي التي أمرته أن يلتحق بالفتحاويين، من أجل التصدي لهذه الحكومة المتصهينة والمتآمرة على الشعب الفلسطيني.

أما المطران عيسى البدر فقد أقسم بالرب وبالعذراء وبماء النهر المقدس أنه شاهدها وهي تقف على باب كنيسة "العبدلي" بعد قُداس يوم الأحد، ومنعت "مريم العذراء" من الخروج خارج أبوابها متراً واحداً، وقالت لها: إن حماية المسيحيين العرب ورعايتهم هو من صميم اختصاصي أنا وحدي، أما أنت فلك الكنيسة تقيمين فيها وتمارسين فيها صلواتك وطقوس عبادتك، فإياك أن تخالفي أمري أو أن تعتقدي بأنك أولى بهم مني.

الحاجة أم صدقي الرباعي العائدة من بيت الله الحرام بعد آداء مناسك الحج، قالت لزوارها المهنئين لها بالحج والسلامه، إنها التقت بثينة وهي تبحث عن فاطمة الزهراء في أكناف الكعبة، حتى تعيد لها أولادها الذين سلبتهم منها، من العراق واليمن وجنوب لبنان حتى أقاصي المغرب العربي.

الغريب في الأمر كله، أن أمر بثينة وحكاياها بدأ يأخذ طابعاً جدياً، لدرجة أن بهيجة نفسها شعرت بالخوف وأحضرت بعض المشعوذين المشهورين بطرد الارواح وعمل رُقية تبعدها عن بيتها.

أما معتصم الحاجي حارس السفارة الأمريكية فقد ادعى أن بثينة زارته مرة متلثمة بوشاح أسود، وسألته إن كانت راحيل تأتي خلسة هنا، وترتب المكائد مع طاقم السفارة لتعود إلى الكرامة مرة أخرى.

ولما أجابها بالنفي أمرته أن يبعث في طلبها لو شاهدها هنا حتى تقضي عليها قريباً، وأعطته ديناراً ذهبياً منقوش عليه صورة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان وهو يرفع سيفه من على جواده، فلما علمت دائرة الآثار العامة بأمر هذا الدينار زجوه بالسجن بتهمة البحث عن الدفائن والآثار من دون تصريح رسمي من السلطات.

وأقر الدكتور هشام ابوالنور لطلابه بوجودها حينما سألوه إن كان في التاريخ ما يشير إلى وجود بثينة، وقال إن أعظم إنجازاتها كانت في التصدي لمصاصي الدماء الذين ظهروا في منتصف القرن الثامن عشر في أوروبا، فقد منعتهم من التقدم باتجاه بلاد العرب، وأنها تلاقت معهم في معركة سُميت بمعركة "جولش" في عرض البحر الأبيض المتوسط بأسطول بحري عظيم، مكون من الملائكة والجن، وأنها انتصرت عليهم في تلك الواقعة انتصاراً ساحقاً وعظيماً.

كان أبو النور يذكر قصص بثينة ويتلوها على طلبته بكل عزة وخُيلاء.

وقال إن هذه الحرب جرت بعد أن عسكرت بثينة في مدينة القيروان بتونس، ووصلت بسيقان خيلها المياه وهي تقول: من هنا مرَّ أجدادي يوما.

وحينما أتتها وفود الكونت "دراكيولا" زعيم مصاصي الدماء عارضةً عليها ألا تقف بوجه طموحاتهم وأهدافهم في السيطرة على مناطقنا وبلادنا مقابل أن يعطوها أمريكا الشمالية برمتها، تحكمها وتكون لها ولابنها من بعدها.

ردت عليهم تقول وهي ترتدي صولجان الحرب: الفرق شاسع بيننا وبينكم، أنتم لا ترون من هذه البلاد سوى الدم ومن بعده البترول، ونحن لا نرى منها سوى قبورها وساكني هذه القبور.

لما صارا وجهاً لوجه في المعركة صاحت به: أيها الحاقد على الله، الضال عن رشدك بعد موت زوجتك، أيها المغرور الذي قتله السلطان العثماني محمد الثاني أوأيّاً ما كنت وما كانت حقيقتك، فإني أعلمك بأنك لن تمر من هنا إلا على جسدي.

ثم انقضَّت عليه وعلى من معه تذيقهم ويل العذاب.

أحد الطلبة المنتمي لقبائل البدو سأله: وكيف انتصرت عليه وقد عمد "دراكيولا" إلى تحطيم كل الصلبان الموجودة بالقرب من شواطئ العرب على يد أتباعه ومن كان متآمراً معه

من أتباع "السبتية"، وهو مذهب يهودي يدعي معتنقوه انتسابهم للمسيحية وأنهم فرقة من فرقها، حيث كانوا يحيكون المكائد والمؤامرات ضد بثينة من كنيستهم الكائنة في ضاحية الرشيد.

فارتسمت على وجهه ابتسامة من سؤاله لأنه استدل على تيقظ ذهن الطلبة معه، وقال: هنا ظهرت حكمة بثينة وذكاؤها، فقد استخدمت الهلال مكان الصليب، حيث غاب عن ذهن عدوها أنهما يؤديان نفس الغرض وإن اختلفا في المنبت الديني.

ثم إن بثينة عمدت إلى إحضار حجارة من الشمس ووزعتها على الشواطئ في البحار والمحيطات المتاخمة لحدودنا، فإذا ما اقترب أحد أفراد عصابة مصاصي الدماء فإن هذه الحجارة تعكس أشعة مخزنة من أشعة الشمس باتجاه هذا العدو فيحترق ويموت.

وفي نهاية العام الدراسي جاء الامتحان النهائي بسؤال واحد وهو:

ضع دائرة حول رمز الإجابة الصحية للسؤال التالي:

لم يُشاهَد مصاصو الدماء في البلاد العربية بعد معركة "جولش".

ا - نعم. ب - لا. ج - لا أدري.

فوضع جميع الطلبة الدائرة حول رمز الإجابة الثانية،

باستثناء ابن بهيجة الذي ترك الدوائر فارغة، وكتب بأسفل الصفحة: لِئن فقدت وطنك وبحثت عنه بقلبك ولم تجده، فاعلم أنك تعيش في المنفى أو في الوطن الخطأ، تماماً كما المحبوب الذي تتبصره في كل الأرجاء ولا يراه قلبك.

فوضع لهم الدكتور أبو النور جميعاً علامة صفر وأعادوا المادة في الفصل اللاحق.

أخذت الدنيا صاحبها لدرب قُدِّر له منذ دبت رجلاه على الأرض، درب حاول الجميع أن يُحيده عنه، ولكن هيهات لأحد أن يقوى على تغيير دروب الأقدار، من رامي الذي أخرجه من فكي الموت، إلى بثينة التي احتضنته مثل ولدها، مروراً بوالده الذي رعاه كما يُرعى أبناء الملوك، وعامله كما تعامل الخيول الأصيله، ولكنها المدينة التي لا تصلح إلا لتربية الكلاب كما آمنت كنانة متأخراً.

أحبته كما لو أنه رجل قادم من السماء ليس ينتمي لمعاشر الرجال في مدينتها، زرعت له قلبها ورداً، نثرت له الجو عطراً، رأت فيه رجولة ما رأتها بأحد من قبله ولا من بعده، هكذا هي المرأة حينما تحب شخصاً، لا ترى سواه، أما إذا قاسمه أحد عيونها، فهذا يعني أن في حبها ثغرات وشكوكاً، وأنها لم تبنِّ عشقها على بنيان رصين.

رجلها كان شاباً يستطيع الإجابة عن أي سؤال تطرحه

عليه بكل ثقة ودراية، ينتقل بها من الفلسفة إلى الفيزياء ويعرج بها على الأديان والتاريخ وغيرها من العلوم والمعارف، فكانت تظن بأنها تنجح شيئاً فشيئاً في إعادته لحلبة الحياة التي أقصي عنها.

حلبة الحياة التي كانت ترسمها على أنها حلبة سباقات للخيول، فاكتشفت بأنها حلبة ملاكمة، الكل فيها يبحث عن الضربة القاضية ليصرع من يقف مقابله.

لم يتصور أحدٌ أن هذا سيحدث، علي القاسمي أصبح مجنوناً، هكذا وبكل بساطة تحايل على الرحيل بجنونه، فشل في دسٍّ روحه مع روح رامي من قبل ولازمه الفشل مع بثينة من بعد، فنجح في ترحيل عقله معهم إلى القبور.

كان عليه أن يفقد شيئا بعدما فقد بثينة، وها هو قد فقد كل شيء: الحب والعقل.

حاولت بعدما دفنت بثينة أن تعرف أين هو، شُقَّت الارض وبلعته كما تبلع أراضينا المطر، فشُقَّ قلبها من جديد، كل الأفق بدا أمامها كجدار مسدود ليس منه فتحة للنور، ليس منه نفق يقودنا للخروج ولا فسحة للتلاقي.

لم تكن قد استوعبت بَعدُ أنه جُنَّ وفَقَدَ عقله، فكيف ستستوعب أنه ضل مكانه وضاع، كانت تعرف أن سكان

صويلح ضائعو الاتجاه والروح، ولكنّ ضياع الأجساد هذا الذي باتت تغرق فيه، ما كانت تعرفه إلا بحوادث قليلة متعلقة بطفل لم يرجع مع الغروب لأهله، أو مع مسافر هاجر إلى بلاد بعيدة ولم يعد أحد يدري عنه شيئاً.

أما اليوم وقد خبرته على هذا النحو، فإن هذا معناه أنها قد خبرت كل أشكال الحياة وأنماطها وطرائقها، وبهذا تكون قد أخذت حُصّة جيل بأكمله من العذاب.

الطفل المتسول الذي ظل يمارس بيع الأعشاب بالتجوال رافضاً أن يبني له كُشكاً يستقر فيه مخافة أن تهدمه بهيجة بالتعاون والتواطؤ مع أجهزة الدولة، أخبر كنانة أن والد القاسمي جاء وأخذه بعدما لقيه رجل شيشاني عند مخبز صويلح وقت الفجر في اليوم التالي لموت بثينة، واتصل به يخبره عن حال ابنه بعدما تعرف عليه، فأخذه وأخفاه عن الانظار.

رفض مقابلتها أو الإفصاح عن مكان ابنه، قالوا لها بأنه في رحلة علاجية إلى أوروبا، فتشت عنه كثيراً، جابت كل المستشفيات والمصحات ولم تجده، إلى أن أعلمها الأستاذ مصطفى الحسن أن معارفه في دائرة الإقامة والحدود أكدوا له بأن حبيبها قد غادر إلى النمسا برفقة والدته وأخيه، إثر حصول والده على إعفاء طبي من القصر الملكي لمعالجة ابنه.

كل محاولاتها بإقناع والده بإعادته للمدينة باءت بالفشل،

قابلها بوجهٍ عابس ورفضٍ قاطع، رَجَتّه كما يرجوه الناس ليتوسط لهم في الديوان الملكي فما حن لرجائها.

فلم تجد أمامها إلا أن تلجأ للمحاكم وترفع دعوى قضائية، تدعي وتتظاهر فيها بأن ابنه قد تزوجها زواجاً عرفياً بشهادة بثينة، ومن حقها اعتماداً على رابطة الزواج بينهما أن ترعاه، وادعت أن وثيقة الزواج قد ضاعت بهدم الكُشك.

لا زلنا نحملك يا ذاك الكُشك الكثير حتى وأنت مُهدَّم .

وحتى لا تُفهَم خطأً، فقد قدمت أوراق تنازل عن أية حقوق لها في ذمة علي القاسمي، أو أي شخص آخر تربطه به علاقة دم من أهله وغير أهله، كما أنها قدمت بصفتها زوجته تنازلاً كاملاً عن أي حقوق لها ولعلي من ميراث أهله لأخيه الذي كان موظفاً كبيراً في شركة الفوسفات الوطنية.

فردت المحكمة قضيتها وحكمت ببطلان دعواها.

قالت للطفل المتسول الذي ظل يتردد على مكان الكُشك: المرأةُ الحقةُ والعاشقة الحقيقية تحافظ على حبها حتى يخونها رجلها، وعلي لم يخني.

إبن الذوات وهو يناكفها في محاولة منه إغاضتها واستثارتها، أخبرها بأن مجنونها عاد من النمسا، وهو الآن في مستشفى الفحيص الحكومي مع بقية المجانين أمثاله على حد وصفه وقوله.

فما كان منها إلا أن استأسدت في محاولات مقابلته التي باءت جميعها بالفشل، إذ رفضت إدارة المستشفى استقبالها لمنع ذويه أي أحد من زيارته إلا بموافقة خطية من أبيه.

والده الذي كان يحملها جزافاً مسؤولية ما جرى لولده حيث كان يقول لها: غرامك أضاع لي ولدي، بقيت كلماته تلك ترن بأذنِيها وتولد فيها تساؤلات حول إمكانية قيام الغرام والحب في التدمير، وهل يكون الحب في جوهره آداة للفتك والتحطيم ؟

عموماً، للصحفيين شبكة علاقات يعرفون كيف يستغلونها في وقت الحاجة، فحشدت كل الوساطات التي تقدر عليها لتراه فلم تستطع، استنجدت مرة أخرى بالأستاذ مصطفى الحسن والذي كان بدوره يحمل لها شعور الأبوة والإحترام، على اعتبارها صحفية نقية تشق طريقها بوسائل مشروعة، قبل أن تستقيل تضامناً معه على إعفائه من منصبه.

فما كان منه إلا أن رد الجميل بالجميل والموقف النبيل بمثله، فليس لرد الجميل تعريف بكل لغات العالم إلا من خلال العمل بمثل ما عومِلنا، فدبر لها أمر مقابلته ليلاً، بالتنسيق مع مدير المستشفى من غير أن يعرف أحد.

وقبل أن يتم اللقاء بساعة أُحيل مدير المستشفى إلى التقاعد من دون إبداء الأسباب، فباءت كل محاولاتها في الالتقاء بمحبوبها بالفشل مرة أخرى، واصطدمت بحائط من صوان.

خدعها الأمل مرة أخرى بلقاء حبيبها، فما كان منها إلا أن ضحكت هازئة يُغلّفها القهر وهي تقول: إنه وطني.

منذ البداية لم يشجعها الأستاذ مصطفى الحسن على علاقة الحب هذه حينما أخبرته وأسرّت له بحبها لمحارب نجا من الحرب بأعجوبة، كان ذلك أثناء مؤتمر حول أثر الحروب في صياغة فكر المحاربين قبل ستة أشهر من حادثة الكُشك.

قال لها بالتحديد: المحارب لا يصلح للحب، جيناته يصيبها الخلل فلا يعود بقادرعلى الاستمرار في مواجهة من صادروا حربه واستولوا على إنجازاته، يصبح بلا قلبٍ بعدما حوله وطنه إلى مجرد بهلوان وظيفته حضورالاحتفالات السنوية وأخذ الهدايا المادية والعينية.

يومها كانت متفائلة وكانت الورود لا تزال تنبت في صدرها، فلم تأخذ كلامه على محمل الجد والإهتمام.

أصبحت الآن تفهم وتعي كلامه حينما قال لها: كل الغربة في المحاربين، الحب بالنسبة لهم مجرد محطة يتفيأون بظلالها ثم يرحلون، مجرد استراحة يمثلون فيها دور السعادة بعض الوقت ثم يعودون إلى حيث قُدِّر لهم، كلمات الحب التي تخرج من أفواههم تُفزعُهم، تجعلهم يستذكرون الرصاصات التي مرت من فوق رؤسهم، إنهم يقيمون علاقات الحب ليثبتوا لأنفسهم ولغيرهم أنهم قادرون على استكمال الحياة، ولكن الحقيقة غير ذلك.

المحارب لا يمكن أن ينسى القبور التي حُفِرَت بقلبه حيث يرقد رفاقه في السلاح، تماماً كما الفقير الذي لا تراوح عيناه تريان رغيف الخبز ولا يلتقطه.

رتابة حياتهم تسير بهم على إيقاع ممل، وذكريات الحرب التي لا يدرون كيف نَجَوا منها تجعل النور الباهت الذي صنعته أوهامهم يتبخر سريعاً، يكتشفون أن ما تبقى لهم من عظيم أمجادهم مجرد نياشين وأوسمة يتلقونها في ذكرى حربهم.

العاشق المحارب لا يختلف عن العاشق الغريب، فهو يزرع لحاته وتقاسيم وجهه في قلوب من يحبهم ثم يرحل بعد ذلك غير مكترث بهم.

هذا ما يفعله باختصار.

دُرِّب على القتل حتى وإن كان لا يحمل سلاحاً، يقتلنا بهجره ورحيله، بصمته وأدوات اعتراضه وقبوله للأشياء، فاهربي بروحك وأمسكي قلبك عليك، لن تجدي في بلادنا إلا من يفتك بك وبمشاعرك، مرة من دون قصد ومرات بقصد.

سيطارحها الوجع والناس يتهامسون عليها شفقة، إذ أصبحت خالية الوفاض غريبة القلب والوطن، تصيح في المدينة منكسرة، فترد عليها قباب مسجد الشيشان: أنْ اصمتي يا صبية الفقد، ففي صويلح لا يُعمِر إلا الصامتون.

صويلح خُلِقت للمهزومين يستقرون فيها، فما الذي جاء

بك أنت يا ابنة الأمجاد الوهمية والعاشقة الثكلى ؟ لا ترتدي الأثواب الجميلة فالأثواب المزركشة خُلِقت لمدن الحكماء، ومدينتنا هذه ضلت الحكمة من بين يديها وأضاعتها منذ كانت فتية تتحسس طرق الخلاص من سادتها.

صويلح لن تكون مكانها بعد الآن، لا أم لا ملاذ لا حبيب، أوَ هكذا الحياة تَفرَغُ بسرعة ؟ أوَ هكذا المصائب تأتي على حين غفلة منَّا ؟ كالزلازل إذ تأتي بلا إنذار، كاللصوص إذ يدخلون من دون استئذان، كالحكومات إذ تعطي قراراتها من دون تمهيد.

رامي البندري كان أحمقاً ومن بعده كان كل الشهداء حمقى على شاكلته، لقد ضحوا بدمائهم حتى يرتع هؤلاء اللصوص في أوطاننا وحتى تكون مدننا أكثر أمناً واستقراراً لاستقبال المومسات من كل أسقاع الدنيا، فلقد أورث هؤلاء الشهداء الفقراء خوفاً غريباً على حياتهم لم يعهدوه من قبل، فصاروا يخشون الموت لو نطقوا، لو تحدثوا بصوت مرتفع، لو عشقوا الحياة لو أحبوا بنات الجيران.

ستعزف كنانة عن كل شيء، وسيبهت وجهها مع الوقت وهي تصارع كل الأفكار التي تحاول النيل منها، وستضع نصب عينيها مجموعة من القيم والمباديء لن تغيرها حتى لو تكالبت الدنيا عليها.

أمها لم تمت، الشهداء حمقى، عاشقها سيصحو يوما، وهذه المدينة لا تصلح للحياة.

مبادئ لخصتها على نحو غريب، مما جعل الناس يتساءلون من فقد عقله منهما: هي أم القاسمي.

في مدينة تغص بالوحول، وتعج بالغرباء الباحثين عن موطئ قدم لهم في ديار ما هي بديارهم، منكرين لثوابتهم إن كان لهم ثوابت من الأساس، في مدينة صارت تعج بالجميلات القادمات من بلاد الثلج في أوروبا، يصبح الزحام فيها خانقاً حَدَّ الخوف على الحياة، يصبح الخوف على الأطفال مبرَّراً لو خرجوا من البيت، مخافة ألا يعودوا مع أبناء الجيران لو عادوا مع المساء.

في مدينة يُقتَل فيها الحلمُ الطفولي العذب، وتُنتَهك فيها أستار القلوب الجامحة نحو الحياة والحب، في مدينة غُلِّفت بالوجع والألم المحزن فأصبح عنوانها وديدنها، في مدينة كهذه المدينة يكون الإقرار بجنون من نحب كمن يخط آخر مبرر له في العيش والحياة.

مرةً أخرى وعلى مدرجات الفارابي يسأل الدكتور هشام أبو النور طلبته: أتعلمون لِمَ يتحول شهداؤنا إلى أشباح ؟ فقال له ابن بهيجة مستنكراً رافضاً وصفه لهم على هذا النحو: ومنذ متى يتطاول الوهم على الحقيقة ؟ ومنذ متى صاروا أشباحاً وصرنا نُقيّمُهم وكأننا أهلٌ لتقييمهم ؟

فلم يُعر اهتماماً لفلسفته الوجودية هذه وأكمل يقول: إن

أمواتنا لا يغادروننا ويخرجون من قبورهم ملاحقيننا ومنغصين علينا حياتنا، لأننا لم نلتزم أبداً بوصاياهم، ولم نكمل دربهم في التحرر والانعتاق من العبودية والاستعمار، وانكفأنا على أنفسنا ننهش بلحم بعضنا ، فنحن أبناء الجيوش المهزومة جَيَّرنا نصرهم لبعض دنانير وقصائد كُسِرَت أوزانها.

كيف خانها ذكاؤها وغفلت أثناء سهوها بأن للغرباء تركيبتهم؟ وأنهم لا يفكرون إلا بأمهاتهم وبهدم الفجوة بينهم وبين الوطن ؟ كيف غاب عن ذهنها أن الحبيبة هي آخر ما يشغل بالهم أو يأخذ حيزاً من اهتماماتهم ؟ فلو كانت تشغل قيد أنملة من تفكيره لما أقدم على تسليم عقله للسماء مستسلماً تاركاً قلبها حيث انتهى.

كيف أغفلت إيحاءات إخفائه أمر القُبَل عن الدنيا كلها وحرصه ألا يعلم بها أحد ؟ كيف لم يستوقفها رفضه تقبيلها في النور وأمام الناس، واشتهائه تلك القُبل سراً وخلف الكُشك.

كيف لم تعرف أن الرجل الذي يُخفي أمر حبه وعشقه لمحبوبته عن أقرب الناس له، هو رجلٌ يضمر الرحيل واللاعوده؟

صويلح ومن بعدها عمان أضحت بلا نكهة، فأين تذهبين؟ وجهتك إلى الشمال ضبابية ليست تحمل شيئاً من ملامحك، وفي الجنوب قحط يأكل قلبك، الشرق فضاء لا تسكنه الأحلام والغرب موطن الموت.

خاطبت صورته التي استنطقتها وأبت الكلام قائلة: لَكَمْ يحزنني أنك لن تكلمني بعد اليوم، وأني ما كنت أعرف أننا لن نلتقي بعد تلك الظهيرة، لن تقبلني سراً خلف الكُشك، لن تغني لي اشتياقك المزعوم، لن تجيبني لو سألتك ألف مرة في اليوم الواحد: هل تحبني ؟

فقل لي بصدق: أكنت تبحث معي عن مؤنس يطرد برد العمر من عظامك، أم كنت تبحث عن حبيبة تعبر منها إلى مدينة أخرى ؟

يا ويلك أنت لم تكن تحبني، فلو كنت تعشقني لَمَا رحلت عني وتركتني للوحدة والعذاب، أكاد أُجزم أن كلّ الذين رحلوا عن محبوباتهم لم يكونوا عاشقين لهنَّ منذ البداية، لقد تعاملوا مع محبوباتهم وكأنهنَّ زوجات متعةٍ ومسيارٍ لا أقل ولا أكثر، ولو كان الموضوع غير ذلك لعادوا إليهنّ من دون تردد.

يحزنني أني صرت أرملتك من غير أن تتزوجني، صارت أعضائي حُبلى بالحب وبالحنين الملتهب لوجهك الذي يُخيم على عيوني، عيوني النازفة على وقع غيابك، فهل تردك الدموع وتعيدك إليَّ ؟

صار صمت غيابك كسياج يفصلني عنك وعني، يوجعني بك، يتبختر السكون المدوي معانقاً صمت المدينة المطبق، يعج بالأنين، يضع حداً فاصلاً بين الحياة والموت.

يا أنت، حتى الأموات لهم مزارات، فاجعل لجسدك مكاناً أبني عليه مسجداً وكنيسة.

فيا ليتك كان لك يا رفيق الشوك والحشائش جسد بمكان ما تحت هذه الأرض، ليتك كانت لك راسيةُ قبرٍ لبنيتُ على أطلاله مسجداً وكنيسة، أجمع معهما معبداً يهودياً وآخر هندوسياً أو بوذياً، ولطالبت الجميع أن يتعبدوا هنا في معبدك وأسميته معبد الكرامة.

لكنني أخشى ويا ويل ما أخشى إن بنيتُه وشيدتُه من عرقي وتاريخك المهزوم ألا يدخله أحد، ألستَ أنت من قال لي يوماً بأننا أضحينا بلا كرامة ؟

أتعلم يا ابن الجيوش المهزومة أن للرجال رائحة يستمدونها من رائحة الوطن ؟ إلاكَ أنت كانت رائحة الوطن من رائحتك.

ألم تعلمني أن لِكُل واحد منّا رائحته الخاصة، وأن رائحة عطرك تختلف عمّا هي على أجساد الآخرين، ذاك أن جسدك يفرز رائحة مختلفة عن روائحهم، كبصمة الإبهام إذ لا تتشابه أبدا، فنحن نحب فلاناً أو فلانة لأننا انجذبنا له، والانجذاب مرده لرائحة جسده وليس لكلامه، ليس لمشيته بل لرائحة مشيته، ليس لقوامه وعينيه وخده بل لما تفرزه هذه الأعضاء من روائح وهي تمارس وظائفها.

يا رائحتك أنت كيف كانت تفعل بقلبي الأفاعيل، يا رائحتك أنت يا رائحة العرائس المغتصبات والخيل المتعبة من الصهيل.

يا أنت يا ابن قلبي، نسيتُ أن أسألك قبل أن تغادرني، فما كنت أعرف أنك مفارقني، ولا كنت عارفةً أنك لن تكون في المكان يوماً ومعذرةً مني إليك إن تأخرت بالسؤال بنحو فاجعة وحادثة غياب، فهلا بعثت لي الجواب مع الطائر الوردي لو مرَّ في سمائك يوماً وأخبرتني عن الكيفية التي نُحاكم فيها قلباً خذلنا، أذاقنا الوجع وتركنا للوحدة والفراغ، لم يكترث بنا حينما أبقانا عرايا أمام عواصف المدن التي لا ترحم، وابلٌ من الحزن يغلفنا بذهابه.

صار رحيلك غريمي فمن يفصل بيني وبينك ؟ أيُّ حَكم أرتضيه غيرك يا أنت يا جبالي الشاهقات المطلات على الكرامة.

ضاعت الاتجاهات في مدينة ضاعت فيها الحياة، وصار المضي فيها نحو الغرب الجنوبي هو القرار الصائب والأنسب لَعَلَّ فيه ما يصلح للحياة ولشفاء الشفاه المجروحة من القُبَل.

رأت في الإتجاه الجديد مكانها المناسب، وعليها أن تشد الرحال صوبه فتصله سريعاً قبل أن تُضيعها الحياة مرة أخرى، وقبل أن تتيه في ملكوت الشَّتات، وخصوصاً أنها لم تعد تعرف وجهة غير هذه الوجهة.

من هناك خرج حبيبها كياسمينة شقت الأرض لتلتقيه، وكم يباغتنا الأحبة بخروجهم من أمكنة لا نتوقعها، من اتجاهات رمادية ضبابية غير محسوبة على وجهة مستقلة واضحة ومحددة، فلطالما تعلمنا من العُشاق بأنهم لا تحدهم الاتجاهات المكانية ويضيعون عند المفترقات الروحية، فيستلذون بالاتجاهات غير الواضحة المعالم.

كان عليه ألا يأتي، هكذا حدثت نفسها وقالت: كان عليه أن يبقى هناك منتظراً قدومها إليه، فها هي الساعة تذهب إلى هناك متحسسة وقع خطاه بنفس المسار الذي قطعه حتى وصلها من دون أن يعلم، القدر أجَّل له موعده مع الموت حتى يلقاها، وأجل موعدها مع الكرامة حتى تموت، كان له معها قُبلَة فاستبقاه الموت بعض الوقت يأخذها ثم يمضي.

لقد كان محقاً في كل شيء، محقاً حينما كان ينهاها عن الحلم إذ يقول لها: كيف تحلمين بوطنٍ لا يحلُم بِك، برجلٍ يترك حلمك للغيم يتأرجح منكسراً ليس يقوى على تحقيقه، كيف ترثين وطناً مباعاً كما ترثين رجلاً رمى بثقله نحو الغياب، كيف تهيمين برجل عشق الخريف كعشقه لملاقاة الأموات، يتعرى قلبه كشجرة ترتجف من البرد في كانون.

لم تهتز يومها من جوابه وقالت له بثقة: سأريك الفجر من عيني لو نظرتني خِلسة بعيون قلبك المهترئ وأنسيك وطنك

المهجور، فابتسم برغم خرائب روحك وتوخى الطريق لا تُضيعَنّه إلى قلبي، إني ذبحني البرد القادم من طول انتظارك تحت المطر عارية من دفء قلبك، فمتى يعود لك صوابك وتأتيني.

كل الطرق تضيع إلا طريق الكرامة لا يضيع ولا تضيع معالمه.

شدَّها المتسول الصغير من قميصها وهي تهم بالخروج من صويلح بالقرب من دوارها الذي يربط الشمال بالجنوب بالعاصمة وقال لها: رحلتم كلكم فلمن تبقوني في مدينة الوحوش هذه ؟ فقالت له: نُبقيك لأرواحنا التي تُخيم في المكان.

ثم قالت وهي تلقي النظرة الآخيرة على مكان الكُشك: لستُ أدري إن كنت قد أعود يوماً، ولكني أدري جيداً أني لن أنساك أبداً.

شدَّها المتسول الصغير ثانية وقال لها: أخبريني كيف يجيء المطر وكيف ألعب بالثلج وحدي لو جاء في كانون، فقالت له: إن رأيت المطر فاجعله يحدثك عن ساحات الشهداء وكيف تحولت ميادين الأبطال لصالات قمار، واسأله عن لون الزهر الذي بهت بوجهي وكيف تلونت البارات.

اجعله يحدثك عن تكميم الأفواه وكيف عَلَتْ ضحكات الغواني، عن تقطع الصلات بيننا وبين الوطن وكيف ضاعت

هويتنا فيه، عن تراب الوطن كيف استرخصوه وعن بلاد الخواجات كيف تقف المرأة واثقة من عودة عاشقها لو غاب دهرا.

صويلح مدينة المتناقضات، فالسلط مدينة الجبال الهادرة وصولاً للشونة الجنوبية التي تعيش بأكناف ألف عام مضت، ومن ثم التوجه إلى الكرامة حيث تلك البقعة تقابل موطن العفة في جسد المرأة الشرقية.

إنه طريق الموت الذي اتخذه القاسمي، ينجو فيه من موت ويقع بموت آخر، وعليها أن تحاول استقصاء آثاره حتى تجعل من طريق الموت هذا طريقاً للحياة التي ما عادت مؤمنة بفاعليتها.

مَنْ قال إن البلاد لا تشبه بعضها البعض فقد صدق، إذ لطالما تَغنَّى الفلاحون بهذه الفكرة، حيث رددوا في زرعهم وحصادهم بأن الارض تختلف من شبرٍ إلى آخر.

لا رِحال تحملها معها، لا متاع تحط بها في أرض الكرامة، جاءت خالية الوفاض من كل شيء ممتلئة بالوجع وبذكرى رجلٍ تمنت لو ماتت هي ولا فقدته، كيف تُختَصر الأوطان برجلٍ يأتي من غير ميعاد ويرحل من غير استئذان.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها المنطقة، غير أنها لم تتفاجأ بها كما لو أنها كانت إحدى ساكنيها يوماً، بعض المناطق نحبها لأن عزيزاً علينا أحبها أو عاشها أو حَمل لها في داخله

خصوصية معينة، وها هي الآن في أرضها الجديدة كما وصفها لها حبيبها، بالشبر، بالنخلة، بحبة الخضار التي ينتجها الفلاحون، برصاصةٍ مرة من فوق سمائها، بشهيد سقط فوق كومة تراب فعانقها.

قد يبدو كل شيء طبيعياً وعادياً وفي مكانه للوهلة الأولى، ولكن الحقيقة كانت غير هذا، فالمكان يعج بالفوضى والفقر، تماماً كما هي قلوبنا إذ تتداخل فيها الأشياء ولا تتوقف عواصفها وتضارباتها.

ليته منحها شيئا من قلبه، لكنهم الرجال يفقدون عقولهم حينما ينتكسون من أمرٍ ما.

تذكرته وهي تجوب المنطقة حينما قال لها: لم ينصبوا قوساً لنصر الكرامة كحال قوس النصر في باريس كما فعل نابليون تخليداً لانتصاراته، واكتفوا بصناعة تمثال الجندي المجهول.

قال لها بأنهم تجاهلوا فعل ذلك لأن المنتصر الحقيقي لم يكن منهم وإنما كان مجرد شاب مغمور قدم من صفوف شعبٍ أدمن طأطأة الرأس، فحاولوا بالجندي المجهول أن يخفوه بغية تضييع الحقائق ونسبة النصر لهم.

غرغرت عيونها وهي تتخيله أمامها يقول لها: في الكرامة كان المسيح معنا، ويوشع وأبوعبيدة والله من قبلهم، إلا أن الحكومة وقيادات حركة فتح والجبهاويين والخواجات أنفسهم لم

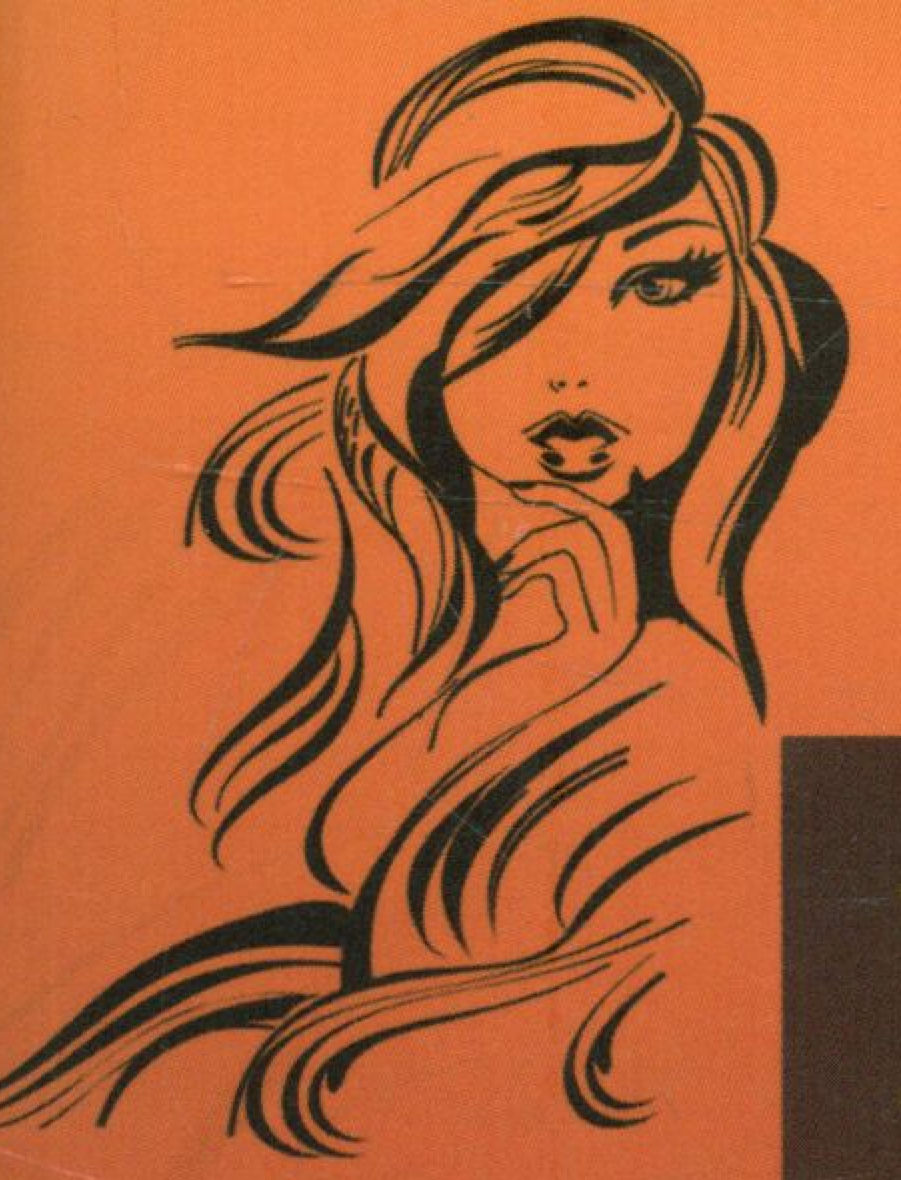
يكونوا معنا، كنّا وحدنا نحارب راحيل، بل كنّا وحدنا نحاربها هي والمتآمرين معها.

قالت لنفسها: كل بلادي صقيع تخلو من الدفء، تموت الأجنة في رحمها من شدة برودتها، ليس فيها حرارة تعطيك الأمل بتفتح الزهور إلا بهذه القطعة منها، كل بلادي كانت مخاصمة للصدق الذي ما تحسسته إلا هنا، وهنا سأستقر وبهذا الغور السحيق سأعيش، أنشئ كُشكاً وأسميه كُشك الغرباء.

وبدلاً من أن تبيع فيه الصحف والمجلات والكتب بحكم عملها واهتماماتها، أو بيع الأعشاب الطبية بحكم خبرتها التي اكتسبتها من كُشك صويلح، آثرت بيع الأسلحة البلاستيكية وتحديداً تلك البنادق والمسدسات التي ترمي الماء بدل الرصاص. فيلعب بها الأطفال ويمرحون بها.

وفي الخلف أخفت مسدسها الحقيقي الذي ابتاعته من قبائل العدوان، لتحمي نفسها وكُشكها من جيش راحيل لو عاد يوماً إلى هنا، ومن الجنرالات وأصحاب البدل الأنيقة وقيادات فتح والجبهاويين لو سولت لهم أنفسهم أن يطأوا المنطقة يوماً.

قالت: هنا سأنتظره، وعلى ضفة النهر سأرسم له ابتسامتي وأشهر قُبلتي بوجهه، فلا بُد أن يمر على المكان قبل أن يمضي إلى قبره، وهنا سأحضنه كما كنت أحضنه عند الكُشك.



أرادت أن ترسم حباً آخر لرجل آخر لا يخلف موعده مع الوطن ، لرجل يحب منظر تساقط الثلوج مثلها ، يختلف معها حول الطفل المتسول ولكنه لا يكرهه وإن كان لا يشفق عليه، كانت تقول لصاحباتها : من يخذل موعده مع الوطن سيخذل حبه مع المرأة ، الوطن والمرأة سيان ، إما أن تخلص لكليهما وإما أن تخون كليهما .

صاحبتها ورفيقة دربها في المدرسة الثانوية وَعت وفهمت دربها الجديد في الحب نحو المعشوق الجديد، فسألتها : أتحبين رجلاً لم يستطع أن يحمي مقاتلاً من الموت ؟ فقالت لها:أحب رجلاً ساعد مقاتلاً على النصر.





عمان - شارع الملك حسين - مقابل مجمع الفحيص
هاتف : 96264651650+ - فاكس : 96264643105+
ص.ب : 367 عمان 11118 الأردن
E-mail: dar_jareer@hotmail.com

